محمد الكوخي

سؤال الهوية في شمال إفريقيا



التعدد والانصهار في واقع الإنسان واللغة والثقافة والتاريخ

أفريقيا الشرق

المؤلف : **محمد الكوخي**
عنوان الكتاب: **سؤال الهوية في شمال إفريقيا**
رقم الإيداع القانوني : 2013 MO 0332
ردمك : 978-9981-25-886-0
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 22 05 - 13 98 25 22 05
الفاكس: 20 29 25 22 05 - 80 00 44 22 05
مكتب التصفيف التقني :39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء.
الهاتف: 54 / 53 67 29 22 05 الفاكس: 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E-Mail : africorient@yahoo.fr
www. afrique-orient.com

الفصل الثالث

في اللغة

يكثر الكلام في أوساط الحركة الأمازيغية - ومنذ ظهورها أواخر الستينات من القرن الماضي - عن «اللغة الأمازيغية» ودورها في تشكيل وعي «الإنسان الأمازيغي» وثقافته وتاريخه... بل أن البعض عادة ما يختصر القضية الأمازيغية بمجملها في مسألة « اللغة الأمازيغية»إلى درجة التماهي بينهما، ليصبح مصطلح» الأمازيغية «مرادفا للغة - أو بالأحرى اللغات - المتداولة في بعض مناطق شمال إفريقيا، تحت ذريعة أن اللغة هي المفتاح الأول للتعبير عن الخصوصية الثقافية لمجموعة بشرية معينة والتي تميزها عن بقية المجموعات الأخرى وهي أيضا أداة لنقل تلك الثقافة وضمان استمراريتها. لكن هذا التناول يطرح عددا من الإشكاليات المرتبطة بتلك اللغة نفسها (أي الأمازيغية) ووضعيتها المعقدة جدا وذلك في إطار أكبر من التعقيد والتشعب الذي تعرفه قضية الهوية اللغوية لسكان شمال إفريقيا عموما :

فهل «الأمازيغية» لغة واحدة متعددة اللهجات ؟ أم هي لغات متعددة ومختلفة تجمع بينها قواسم مشتركة ؟ وهل يمكن أصلا الحديث عن «اللغة الأمازيغية الموحدة» في سياق التعدد اللغوي الكبير في شمال إفريقيا ؟ و ما هي حقيقة الدعوات التي تتكرر باستمرار لتعيير هذه اللغة و تقنينها تمهيدا لتوحيدها ؟ و ما هو دور معضلة الحرف في تشكيل المعركة حول واقع الهوية اللغوية في شمال إفريقيا عموما والأمازيغية بالخصوص، وما مدى تأثير ذلك على مصيرها ومستقبلها ؟...

هذه الأسئلة العديدة ضرورية لاستكشاف موقف النزعات القومية في شمال إفريقيا من قضية أساسية وجوهرية ترتبط بواقع التعدد اللغوي داخل المجتمع ونظرتها إليه. لكن وقبل الخوض في تفاصيل هذه الأسئلة لا بد أولا من مناقشة ماهية اللغة بشكل عام والأدوار التي تلعبها في الحياة العامة والخاصة للإنسان.



I - ما هي اللغة ؟ من أين جاءت ؟ وما هو دورها ؟

تعد اللغة أحد أهم مظاهر السلوك البشري إن لم تكن أهمها على الإطلاق. فخلافا لبقية الحيوانات لا يستخدم البشر اللغة لمجرد التعبير عن حالات شعورية أو أحاسيس غريزية، بل لتشكيل عقول بعضهم البعض. فاللغة أداة مصممة بإتقان للقيام بأغراض عديدة من وصف للأشياء و الأماكن والأفكار إلى نقل للأخبار والمعارف والخبرات، مما يجعل من عملية التعلم أمرا بسيطا وسهلا وأكثر كفاءة، إضافة إلى دورها الهائل في تسهيل عملية التواصل بين الناس وبالتالي إمكانية التعاون ونسج علاقات اجتماعية متبادلة تكون ضرورية لقيام أي مجتمع.

ويعرف المشهد اللغوي عند نوعنا البشري تعددا كبيرا لا مثيل له عند الكائنات الحية الأخرى حيث يقدّر عدد اللغات الإنسانية المنطوق بها في العالم اليوم - حسب آخر الإحصاءات - بحوالي 6800 لغة، توجد من بينها ما بين 3000 و 3500 لغة حية والباقي هي لغات نادرة على شفا حفرة من الانقراض[1]. وتتخطى أكثر من عشرين منها وبشكل واسع الحدود الوطنية والسياسية والعرقية التي نشأت داخلها.

لكن ما هو منشأ هذه المَلَكة التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية ؟ هذا السؤال ظل ولزمن طويل مثار بحث ونقاش مستفيض بين الفلاسفة والمفكرين والعلماء دون قدرة أي طرف على حسم هذا النقاش لصالحه أو إيجاد جواب شاف للتساؤلات العديدة التي يطرحها. لكن ومنذ ستينات القرن العشرين حدثت ثورة هزت أساسات الدراسات اللغوية في العالم بأسره عرفت بنظرية «النّحو التوليدي»، وكان وراءها عالم اللسانيات الأمريكي «نعوم تشومسكي». الأساس في هذه الثورة هو اعتبار أن اللغة البشرية مبرمجة بشكل حتمي في بنية أدمغتنا، أي أنها بعبارة أخرى نتيجة تكيّف جسدي من قِبل نوعنا البشري للبيئة التي عاش فيها أسلافنا منذ عشرات آلاف السنين. ويرى تشومسكي أن اللغة أعقد من أن نتعلمها بملاحظة سياقاتها وقواعدها فقط، ما يعني أنه لا يوجد أسلوب استدلالي خالص يمكن بواسطته استنباط قواعد اللغة بمجرد فحص أو تحليل نماذج من الجمل والعبارات اللغوية. ولذلك فإن الأطفال يجب أن يكون

---

1 - Ostler, Nicolas. 12 , 2003. Prime Numbers. Foreign Policy magazine. N° 11 .

يزودهم شيئا من المعرفة الفطرية (الغريزية) باللغة وبقواعدها لتمكينهم من استيعابها، خاصة إذا ما علمنا أن الأطفال من أي جنس أو ثقافة يستطيعون تعلم أي لغة كانت إذا ما تعرضوا لها في طفولتهم مما يعني أن اللغة خاصية بشرية عامة، كما أنهم يبدأون جميعا في اكتساب اللغة عند العمر نفسه وفي تسلسل محدد جدا، فهم يبدأون من الأصوات البسيطة مرورا بالكلمات البسيطة المفردة فالجمل البسيطة المكونة من كلمتين أو ثلاثة وصولا إلى العبارات المعقدة والكلام المترسل، ويبدو أن ذلك يتم بغض النظر عن بيئة الطفل أو لغته أو مدى تحفزه وذكائه. ويلاحظ أيضا أن اكتساب اللغة من طرف الأطفال يجري بشكل سريع، فمع سن السادسة يتحدث أغلب الأطفال لغتهم الأم بشكل سليم وبقواعد صحيحة، وكلما زاد عمر الإنسان زادت الصعوبات التي يواجهها في عملية اكتساب اللغة. لذلك يراهن تشومسكي على وجود نوع من القدرة البشرية الفطرية يأتي بها الأطفال معهم منذ لحظة الولادة تساعدهم على اكتساب اللغة وتعلمها[2]. وهناك حجة أخرى على وجود نوع من الأساس العام والمشترك للغة، وهي أن كل اللغات تتكون من نفس النوع من الوحدات مثل الكلمات والأفعال والأسماء والصفات وأدوات الإشارة والجمل والفقرات... وبذلك فاللغات المختلفة في العالم تختلف قليلا جدا على مستوى التعقيد النحوي وبنية الجمل والعبارات، هذا إذا كانت تختلف أصلا. وهو ما دفع بأحد أهم الباحثين في اللسانيات «ستيفن بينكر» إلى القول بأنه انطلاقا من وجهة نظر تشومسكي لو زار عالم من كوكب آخر الأرض فسيستنتج أنه «ما عدا الكلمات التي لا معنى لها، فإن سكان الأرض جميعا يتكلمون لغة واحدة»[3].

ولكن وبالرغم من كل ذلك، فإن اللغات البشرية تختلف فيما بينها إلى درجة أن الناس لا يستطيعون التواصل فيما بينهم في بعض الأحيان. وهذا يعني أنه مع وجود مشترك عام بين البشر في عملية اكتساب اللغة يتمثل في بنية دماغية مرونة تقودهم إلى اكتشاف القواعد النحوية واستخدامها، فإن هناك جانبا آخر منها لا يمكن اكتسابه إلا بالتعلم وهو الجانب المعجمي. ذلك أن الكلمات

2 - Chomsky, N. 1986. Knowledge of language : its nature, origin and use. New York Praeger. P.78.

3 - Pinker, S.1994. The language instinct. New York : William Morrow, . P.123.

ليس فيها شيء من الخصائص البنيوية والترابطية للغات كاملة التشكيل التي تطورت فيما بعد على مر التاريخ.

أما بالنسبة لدور اللغة، فإن الفلاسفة وعلماء اللسانيات يعرّفون هذا الدور من خلال إحدى الوظيفتين التاليتين : الأولى هي تمثل الأشياء وتصنيفها من خلال الكلمات، والثانية تتجلى في عملية التواصل مع الآخرين. وفي القرن الخامس قبل الميلاد أشار سقراط في إحدى محاوراته لأفلاطون إلى هذا الرأي حين قال بأن «غاية اللغة» هو تمييز الأشياء عن بعضها البعض، وتلقين بعضنا بعضا هذه الأشياء[6]. ومنذ ذلك الوقت والفلاسفة واللغويون متمسكون بهذا التوجه بالنسبة لوظائف اللغة والذي يلخصها في دورين لا ثالث لهما : التمثل والتواصل. لكن بعض الفلاسفة الحديثين وعلى رأسهم «لودفيغ فيتجنشتاين» ذهب إلى أن الدورين (التمثل والتواصل) يستحيل فصلهما عن بعضهما البعض، واعتبر أن ما يسمى بالتمثل ليس سوى شكل من أشكال التواصل الذاتي والذي يمكن إضافته إلى أشكال أخرى من التواصل الاجتماعي والثقافي.

وفي بدايات القرن العشرين اقترح عالم اللسانيات « مالينوفسكي Malinovsky »أن اللغة تلعب أدوارا أخرى هي التي تؤسس لروابط الهوية المشتركة بين الناس، وأطلق عليها مصطلح «المشاركة الوجدانية»، حيث انتبه إلى وجود نوع من العبارات في اللغة لا تعني بالضبط الكلمات التي تتكون منها، مثل التحية و الاستفسار عن الصحة والسؤال عن حالة الطقس... إلى غير ذلك من العبارات التي تنجز وظيفة اجتماعية بالأساس وهذا هو هدفها المبدئي. إنها نوع من الكلام الذي يخلق روابط التوحيد والمشاركة بين الناس عن طريق كلمات بسيطة متبادلة لا تعني بالضبط مدلولاتها السطحية[7]. ومن الأمثلة الرائجة لذلك ما يحدث عندما يكون شخصان في مقصورة قطار بمفردهما، فغالبا ما ينخرطان في حوار حول حالة الطقس مثلا أو عن الموسيقى أو غيرها من المواضيع العامة... إنهما لا يقومان بذلك لأن الموضوع يهمّهما ولكن لخلق روابط فيما بينهما تحاشيا لجو الحرج الذي يرافق عادة حالة الإمعان في الصمت. وبالتالي فهذا النوع من

6- أفلاطون، المحاورات. ترجمة : زكي نجيب محمود. القاهرة مطبعة لجنة التأليف 1966.

7 - Malinowski, Broneslaw, 1923. The problem of meaning in primate language. New York : Harcourt . P. 478.

الحوار يكون مقدمة لخلق روابط اجتماعية بين الناس وتمتينها ولا يكون مرتبطا بالضرورة بمدلولات الكلمات أو المواضيع المثارة فيه.

وإضافة إلى هذا الدور تلعب اللغة أدوارا اجتماعية أخرى عديدة لعل أبرزها ما يسميه «بيير بورديو» بالوظيفة السلطوية للغة أو ما يصطلح عليه بالعنف الرمزي. وكمثال على ذلك ما يسمى باللغة السحرية (langue magique حسب تعبير بورديو) حيث يستخدم السحرة والمشعوذون لغة مختلفة وغريبة تضمن لهم السيطرة على عقول الناس وخداعهم وتمنحهم سلطة رمزية بواسطة الكلمات المبهمة، رغم أن هذه الكلمات في حقيقة الأمر بدون معنى ولا تملك أي تأثير على الأشياء في الواقع. ويمكن قول الشيء نفسه عن لغة النخب مقارنة بلغة العامة ولغة المدرسة مقارنة بلغة الشارع، إلى غير ذلك من أشكال اللغة التي ترجم سلطة اجتماعية معينة تمارس تعسفا ثقافيا وتضمن للمسيطرين فرض طريقتهم في التفكير والتعبير باعتبارها الطريقة الوحيدة لذلك.

لكن أهم وظيفة للغة وأخطرها هو الدور الذي تلعبه في تشكيل هوية الناس وتمييزهم عن الآخرين، فاللغة أداة مهمة لتمييز المجتمعات وإعطائها صفات خاصة تنفرد بها عن المجتمعات الأخرى. وكثيرا ما يكون للمكون اللغوي دور أساسي في تعريف أمة معينة وإعطائها هويتها المميزة، و ما عبر عنه في الماضي أحد أوائل منظري الفكر القومي الفيلسوف الألماني فيخته حين أصر بأن « أولائك الذين يتكلمون اللغة نفسها ينتمون إلى جسد واحد وهُمْ كلٌ طبيعي لا يمكن فصله».

إذاً فقدرة اللغة على خلق علاقات التواصل والتفاهم بين الناطقين بها تجعل منها عنصرا مهما في تثبيت الروابط النفسية والعاطفية وأيضا الاجتماعية الضرورية لتماسك الأمة والمجتمع، وهي بذلك تتجاوز دورها التواصلي المحض ذي الطبيعة البراغماتية إلى أدوار أخرى نفسية وعاطفية ذات طابع هوياتي بامتياز. وهناك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن اللغة هي آلية للحفاظ على الهوية وإبقاء الأجانب خارجها، عن طريق الخصائص المميزة لكل ثقافة كالقصص والأغاني والمعتقدات والمخترعات والنظم السياسية والمطبخ... وكل ما نعده فعلا جزءًا من الثقافة.

II – التصنيف اللغوي للغات الأمازيغية

يعتبر علم تصنيف اللغات – وهو فرع من اللسانيات – أحد الأدوات الهامة المستخدمة من طرف الأنتروبولوجيين (رغم أنه فقد جزءا من أهميته لفائدة الأنتروبولوجيا الوراثية) لكشف علاقات القرابة الموجودة بين الشعوب التي تتكلم لغات متقاربة، وذلك بإجراء عمليات تصنيف متعددة بناء على المعطيات اللغوية المستخلصة من المقارنات المختلفة بين هذه اللغات. وهناك نماذج متعددة من هذه التصنيفات أهمها : التصنيف التوليدي، ويحاول إثبات رابطة القرابة والتسلسل الموجودة داخل أسرة لسانية كبيرة. وهو بذلك يساعد – ولو بشكل جزئي – على إعادة رسم خريطة الشعوب والثقافات التي تستعمل لغات ذات أصل واحد. ويوجد أيضا التصنيف النموذجي، ويقوم على عملية الجمع بين لغات توجد بينها تشابهات أو توافقات واضحة على المستوى البنيوي (بنية الجمل والتراكيب) والنحوي (إعرابها) و المعجمي (الألفاظ المعجمية المشتركة). وإضافة إلى هذين التصنيفين يوجد تصنيف ثالث يقوم على إجراء مقارنات بين لغات متقاربة على المستوى الجغرافي لتوضيح العلاقات المفترضة فيما بينها.

إلا أن هذه النماذج من التصنيف اللغوي تعاني من عدة مشاكل منهجية وإجرائية. وتعدّ ظاهرة الهجرة وتشابك الشعوب فيما بينها أهم أسباب هذه المعوّقات، حيث ينتج عنها عادة عمليات تلاقح لغوي يجري فيها تبادل البنيات النحوية والمعجمية بين لغات مختلفة، وفي بعض الأحيان يؤدي ذلك إلى حدوث انصهار – جزئي أو كلي – بين هذه اللغات وظهور لغات جديدة هجينة. وعلى سبيل المثال فبعض اللغات كالسواحلية المنتشرة على السواحل الشرقية للقارة الإفريقية تشتمل على أكثر من 60 % من المفردات المعجمية العربية. وكثيرا ما يتم الاستنتاج – بفعل العاطفة الدينية أو نتيجة عدم التحلي بالتحفظ العلمي – بأن السواحلية تنتمي إلى المجموعة اللغوية العربية، رغم أن الناطقين بها يختلفون على المستوى الوراثي وبشكل كبير عن المجموعات العربية كما أن لغتهم أيضا ورغم المشترك المعجمي الكبير فإنها تختلف على المستوى النحوي والصرفي عن

اللغات العربية[8]. وما قيل بالنسبة للسواحلية يقال أيضا عن اللغات الأمازيغية في شمال إفريقيا التي تنتشر فيها المفردات المعجمية العربية بشكل كبير. كل ذلك دفع بالمختصين في علم تصنيف اللغات إلى اعتماد قراءة مزدوجة للغة والتاريخ معا كل واحد على ضوء الآخر، ما دامت الأحداث التاريخية – وخاصة الهجرات والغزوات الخارجية – لها تأثيرات كبيرة على اللغات وحدود انتشارها. كما أن التبادلات التي تحدث بين اللغات المختلفة جراء ذلك تمنع أية إمكانية للتمييز بين المعطيات الأصلية وتلك المكتسبة من الخارج.

وتبقى المعضلة الرئيسية في علم اللسانيات هي تلك التي تتجلى في التحريف الأيديولوجي المتعمد للمعطيات العلمية وتأويلها لخدمة أغراض أخرى ذات طابع سياسي في الغالب. فمنذ أن ظهر علم اللسانيات إلى الوجود مع الزحف الاستعماري الأوروبي تأثر بشكل كبير بالنظريات التفوقية لبعض الأعراق والتي كانت سائدة آنذاك. ونظريات تفوق العرق الأبيض ولغاته باعتبار أهلها متمدّنين تشهد على تطرّفات ما يزال يتردد صداها في عدد من المؤلفات التاريخية واللسانية وبالخصوص حول مناطق إفريقيا المختلفة بما في ذلك منطقة شمال إفريقيا[9]. وهكذا لطالما وضعت مصر بين قوسين بالنسبة إلى باقي القارة على اعتبار أن حضارة كتلك لا يمكن أن ينتجها أفارقة زنوج، كما وكثيرا ما نظر إلى اللغات الأمازيغية المنتشرة في شمال إفريقيا نظرة مختلفة عن باقي اللغات الأخرى في القارة لأغراض أيديولوجية محضة، وجرت محاولات عدة – خصوصا من طرف الباحثين الفرنسيين – لربطها باللغات الأوروبية في محاولة لتبرير واقع الإستعمار الأوروبي في هذه المنطقة. وفي الماضي حاول المؤرخون والنسّابة العرب القيام بنفس الشيء تمهيدا لدمج سكان شمال إفريقيا في الحضارة العربية الإسلامية، فاصطنعوا لهؤلاء أصولا لغوية وتاريخية مزعومة تربطهم بالعرب وتجعل من لغاتهم فروعا متعددة من الأصل العربي دون تقديم أي إثبات

---

8 – باتية دياني، اللغات والتاريخ الإفريقي. ضمن موسوعة تاريخ إفريقيا العام. إشراف موريس جليلي. قسم دراسة الثقافات (اليونيسكو). الجزء 1 ص 244.

9 - Greenberg, J.H. 1971 Language Culture and Economy. Stanford univ. Press. P.180.

أو دليل – ولو صغير – على ما ذهبوا إليه[10]. وما تزال أصداء هذا السجال الذي بدأ منذ عدة قرون مستمرة إلى اليوم، وإن اختلفت أدواته وسياقه التاريخي.

وكما قلنا سابقا فهناك من علماء اللسانيات من يقولون بوجود أصل لغوي مشترك يسمونه اللغة الأولية (أو معجم حواء) تفرعت عنه جميع اللغات الموجودة في العالم اليوم. يسمى هؤلاء باللسانيين «المجمّعين» ويدّعون أن بإمكاننا العثور على أصل كل لغة ومن أين جاءت انطلاقا من عملية تجميع اللغات في مجموعات مشتركة طبقا لتشابهها وتقاربها، وبالتالي يمكن رسم خريطة لمسار الشعوب الناطقة بهذه اللغات وأصولها منذ ما قبل التاريخ خاصة إذا ما جرت مقارنة هذه النتائج مع النتائج الأخرى المحصل عليها في علمي الأنتروبولوجيا الوراثية و الأركيولوجيا[11]. وفي كتابه أصل اللغة يعرض ميريت روهلن نموذجا من هذه الأعمال، حيث يقدم قوائم كلمات من لغات مختلفة ويتم تقسيمها إلى مجموعات انطلاقا من علاقات الشبه والتوافق بينها، حتى يتم اكتشاف مجموعات اللغات المختلفة والمجموعات الفرعية لها[12]، لكن هذا النوع من العمليات لا يحظى بإجماع جميع الباحثين وما يزال موضع أخذ ورد بينهم. فلحد الآن ليس هناك إجماع حول العدد الحقيقي لتلك المجموعات أو الأسر اللغوية الكبيرة، ويزعم بعض علماء اللسانيات أن الأسر اللغوية يمكن جمعها هي الأخرى بدورها في مجموعات أكبر وهكذا دواليك وصولا إلى اللغة الأولى العالمية أو اللسان الأم... وأيا كان الأمر فالموضوع ما يزال محل نقاش وبحث متواصلين.

ويجري عادة تصنيف اللغات الأمازيغية ضمن وحدة كبيرة تسمى «اللغات الأفروآسيوية» وتدعى أيضا باللغات السامية – الحامية[13]. ويمتد مجال انتشارها على كامل شمال إفريقيا والقرن الإفريقي ومنطقة الشرق الأوسط. وهناك اختلاف حول الأصل الجغرافي الأول لهذه الأسرة اللغوية، فالبعض يعود به إلى منطقة

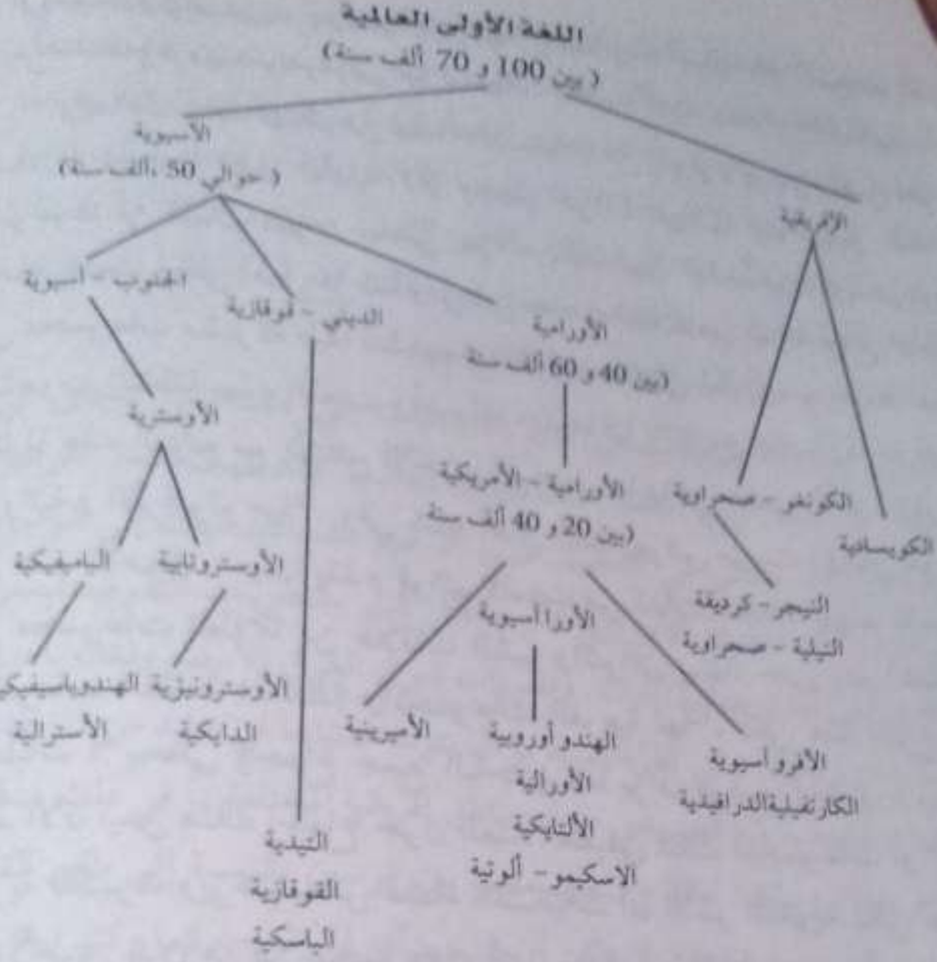
---

10 - أنظر على سبيل المثال ابن خلدون، كتاب العبر الأجزاء 6 و7 . وابن عبد الحكم، فتوح إفريقيا والأندلس. واليعقوبي، معجم البلدان ...

11 - Cavalli-Sforza, L. 2000. Genes, peoples, and languages. New York : North Point.

12 - Ruhlen, M.1994 The origin of language . New York : Wiley.

13 -Ruhlen. M. A guide to the World's languages. Stanford University press. 1987.



شجرة تبين التطور المفترض للمجموعات اللغوية في العالم حسب نموذج روهلن

الشرق الأوسط (وبالضبط سوريا وفلسطين أو شبه الجزيرة العربية)، في حين ذهب آخرون إلى أصلها الإفريقي (شرق إفريقيا أو الصحراء الكبرى). ويسود اليوم في أوساط المختصين اعتقاد بأنها كانت في البداية لغة قوم غلبهم الحنين إلى الوطن فهاجروا عائدين إلى إفريقيا بعد أن كانوا قد هاجروا منها سابقا في اتجاه منطقة الشرق الأوسط[14]. ويقسم علماء اللسانيات الأفروآسيوية إلى خمسة فروع متساوية التميز تقريبا وهي: الأمازيغية والمصرية القديمة والسامية والكوشيتية والتشادية. وقد اكتشفت أول صلات القرابة ضمن هذا الفرع اللغوي منذ سنة

14 – مايكل كورياليس، المصدر نفسه. ص 153.

1530 ما بين اللغات العربية والآرامية والعبرية، قبل أن يضيف لها «الودولف Ludolf» سنة 1702 الفرع اللغوي الإثيوبي بعد إثباته وجود صلة قرابة بينه وبين اللغات المنتشرة في الشرق الأوسط أو ما عرف لاحقا بالفرع اللغوي السامي والذي استخدم لأول مرة على يد «فون شلوزر» Von Schlozer سنة 1781. وفي القرن التاسع عشر أضيف إلى هذه الأسرة اللغوية الأفروآسيوية كل من الفرع الأمازيغي والفرع التشادي المنتشران في منطقة شمال إفريقيا والصحراء الكبرى. ولكن هذا التصنيف لا يخضع للقبول العام من طرف جميع الباحثين، فقد ذهب عدد كبير من الباحثين الألمان وعلماء اللسانيات بشمال إفريقيا إلى رفض هذا التصنيف، واعتبروا أن الأمازيغية جزء من الفرع السامي وليست فرعا مستقلا بذاتها، بل هي من أقدم اللغات السامية ولها علاقات وثيقة جدا مع الأكادية والعبرية[15]. وهو نفس ما ذهب إليه الباحث المغربي محمد شفيق عين اعتبر أن: «جل المفردات التي يظن أن الأمازيغية اقتبستها من العربية بعد الفتح الإسلامي إنما هي مفردات كانت مشتركة بينهما منذ القدم... ومنه فالأمازيغية صورة شبه مجمدة من لغة قديمة تفرعت عنها العربية في وقت ما... »[16]، و حسب وجهة النظر هذه تكون الأمازيغية مشتركة مع العربية في الفرع السامي وليست فرعا مختلفا.

لكن هذا الرأي لا يحظى بقبول الجميع حيث يرى الباحث الجزائري سالم شاكر أن اللغة الأمازيغية أقدم بكثير من اللغة العربية وأقدم حتى من الفصيلة السامية نفسها، وهي لغة مستقلة تنتمي إلى فصيلة اللغات الأفروآسيوية وهي سابقة على السامية بزمن بعيد. ومن هنا يرى شاكر بأن اللغة الأمازيغية: «ظهرت ما بين 9 آلاف و10 آلاف سنة وبأنها لم تتفرع عن أي من اللغتين الأخريين (المصرية القديمة والسامية) حتى ولو كانت هذه العائلات اللغوية الثلاث (المصرية القديمة والأمازيغية والسامية) تتداخل في تعبيراتها المعجمية »[17]. وهو رأي فيه الكثير من

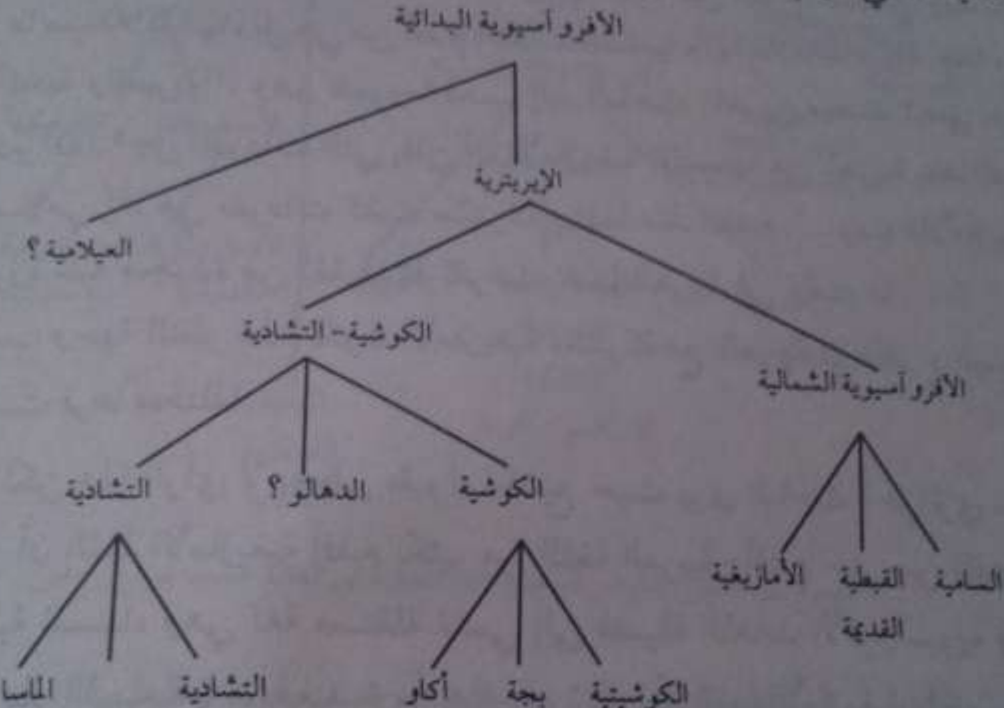
---

15 – محمد الفاسي، البربرية شقيقة العربية. مجلة مجمع القاهرة 1971، ص 65.

16 – محمد شفيق، ما هي علاقة المازيغية بالعربية في جذورها الكبرى؟ مجلة البحث العلمي 1976، ص 231.

17 – مصطفى أعشي، جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، مركز طارق بن زياد، الرباط ،الطبعة الأولى 2002 ص 72.

المبالغة التاريخية خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المعطيات الأنتروبولوجية التي تذهب إلى أن الأسلاف المباشرين لسكان شمال إفريقيا الحاليين - أو ما يعرف بسلالة العصر الحجري الحديث - لا يتجاوز تاريخ وجودهم في هذه المنطقة أكثر من حوالي 5 الاف سنة على أعلى تقدير، ما داموا لم يعبروا الصحراء الكبرى شمالا إلى المنطقة قادمين من الشرق إلا بعد حوالي سنة 3500 ق.م (راجع الفصل الثالث). كما أنه لا يوجد أي إثبات بأن الأمازيغية - كما هي معروفة اليوم - أو حتى بعض المفردات المعجمية كانت متداولة عند الثقافات القفصية أو الإيبيرو- موريتانية / العطيرية. ومن الصعب القول بأن الأمازيغية أقدم من ذلك (العصر الحجري الحديث) في غياب أدلة ملموسة على مثل هذه المزاعم، سوى بعض الإشارات



المعجمية القليلة المتعلقة بأسماء بعض النباتات والحيوانات التي يقدمها سالم شاكر على أنها موغلة جدا في القدم وأنها ربما تكون صورة بدائية قديمة جدا عن الأمازيغية الحالية، والتي تكون ربما انتشرت مع المجموعات البشرية للعصر الحجري القديم (سنناقش ذلك بتفصيل في موضع آخر من هذا الفصل).

وأيا كان الأمر سواء كانت الأمازيغية تنتمي للفرع السامي أو تشكل فرعا مستقلا، فإن الملاحظ أن هذا الفرع الأمازيغي من الأفروآسيوية ينقسم بدوره إلى

عدد من اللغات المختلفة المنتشرة على طول شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، كتلك المنتشرة عند مختلف المجموعات التواركيّة (الطوارق) في الصحراء وتلك المنتشرة بالخصوص في شمال غرب إفريقيا. ومن المحتمل أن لغة الغوانش التي انقرضت من جزر الكناري كانت تنتمي هي الأخرى إلى هذا الفرع. ولم يعثر لحد الآن على أي دليل حول المزاعم التي تذهب إلى ربط اللغات الأمازيغية ببعض اللغات الأوروبية، بل أن علماء اللسانيات تخلّوا بشكل كامل عن هذا الطرح واعتبروه جزءً من الأيديولوجية الاستعمارية الأوروبية في منطقة شمال إفريقيا. كما تجدر الإشارة هنا إلى ما وجد من نقوش بالليبية القديمة لم تفهم تماما إلى الآن، ولعلها تكون شكلا سابقا للغات الأمازيغية الحديثة"[18].

وتعد الأمازيغية - من وجهة نظر ديموغرافية - إحدى الفروع اللغوية المستهدفة للعزل - وربما للانقراض أو التحول على المدى الطويل - في مناطق معينة من شمال إفريقيا، حيث يلاحظ تقلص مستمر في حدود مناطق انتشار بعض اللغات الأمازيغية مع مرور الزمن : سواء على المدى القصير كما هو الحال في تونس حيث يقدر الناطقون بالأمازيغية بحوالي 60 ألف فرد، موزعين بين جزيرة جربة وحوالي خمس قرى في جنوب البلاد. وعلى المدى المتوسط كما هو الحال في موريطانيا (حوالي 10 آلاف فرد) وفي واحة سيوه المصرية (حوالي 10 آلاف فرد)، حيث يتوقع استمرار الأمازيغية هناك لعدة سنوات أخرى بسبب الانعزال والبعد الجغرافي عن المركز المعرّب. وعلى المدى الطويل كما هو الحال في ليبيا (منطقة زواغة وجبل نفوسة) حيث كان لتزايد الشعور هناك بالانتماء الأمازيغي وبالاستهداف من طرف النظام السياسي الليبي دور إيجابي في المحافظة على الخصوصية اللغوية لهذه المناطق... أما في المغرب والجزائر فإن الوضعية تختلف كثيرا بسبب الاتساع الكبير لمجال انتشار اللغات الأمازيغية هناك والثقل الديموغرافي الهائل للناطقين بها حيث يقدر عددهم بعشرات الملايين، ما يجعل من إمكانية انحسارها أو حتى انقراضها مسألة صعبة التصور حتى على المدى البعيد. ويجري اليوم تداول عدد من اللغات الأمازيغية

---

18 - جوزيف هينش غرينبرغ، تصنيف لغات إفريقيا. ضمن موسوعة تاريخ إفريقيا العام. إشراف موريس جليلي. قسم دراسة الثقافات (اليونيسكو). الجزء 1 ص 309.

في تسعة دول من القارة الإفريقية هي : موريطانيا، المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، النيجر، مالي، وبوركينا فاصو، إضافة إلى جزر الكناري التابعة لإسبانيا قبالة السواحل الأطلسية للمغرب.

III – التعددية في مسألة اللغة : اللهجات الامازيغية أم اللغات الامازيغية ؟

يعتقد كثير من الذين يتعاطون مع المسألة اللغوية في شمال إفريقيا أنهم يدركون جيدا ماذا تعني مصطلحات من قبيل «لغة» و «أسرة لغوية» و «لهجة» و «لكنة»... وغيرها من المفردات التي تستخدم في كثير من الأحيان دون تحديد المعنى المقصود منها بالضبط. وفي الواقع يبدو أن هذه المصطلحات ليست سهلة التعريف والتمييز عن بعضها أو عن غيرها من المصطلحات الأخرى المتعلقة بميدان اللسانيات، وذلك لوجود خلط كبير في استخدام هذه المفاهيم سواء عن غير قصد بسبب الجهل بالقواعد المعرفية لعلم اللسانيات، أو عن قصد لتحقيق أغراض أخرى مبنية بالأساس على اعتبارات سياسية وأيديولوجية أكثر منها معرفية.

ومن أجل التمييز بين اللغة واللهجة، يعتمد علماء اللسانيات – عادة – على مقياس أساسي ومهم يطلقون عليه اسم «معيار التفاهم المتبادل» (إضافة إلى اعتمادهم على مقاييس أخرى ذات طبيعة لسانية محضة أقل أهمية). وهذا المعيار ينبني على تحقيق اللغة للوظيفة الأساسية من وجودها وهي التواصل. ومضمون هذا المعيار هو أننا نستطيع القول بأنه إذا لم يتمكن متحدثان من تحقيق الدور الرئيسي للغة أي تحقيق التواصل (بمعنى أنهما لا يستطيعان فهم بعضهما البعض)، فهذا يعني أنهما يتكلمان «لغتين» مختلفتين ومستقلتين حتى لو وجدت بين تلك اللغتين قواسم مشتركة معجمية ونحوية. أما إذا استطاعا التواصل رغم وجود اختلافات معينة في المعجم أو في طريقة النطق أو اللكنة أو حتى في بعض القواعد النحوية، فإن ذلك يعني أنهما يتكلمان «لهجتين» مختلفتين ولكنهما تنتميان إلى نفس اللغة المشتركة والتي غالبا ما تسمى باللغة المعيارية، أي لغة القراءة والكتابة والتعليم.

في تسعة دول من القارة الإفريقية هي: موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، النيجر، مالي، بوركينا فاصو، إضافة إلى جزر الكناري التابعة لإسبانيا قبالة السواحل الأطلسية للمغرب.

III – التعددية في مسألة اللغة: اللهجات الأمازيغية أم اللغات الأمازيغية؟

يعتقد كثير من الذين يتعاطون مع المسألة اللغوية في شمال إفريقيا أنهم يدركون جيدا ماذا تعني مصطلحات من قبيل «لغة» و«أسرة لغوية» و«لهجة» و«لكنة» وغيرها من المفردات التي تستخدم في كثير من الأحيان دون تحديد المعنى المقصود منها بالضبط. وفي الواقع يبدو أن هذه المصطلحات ليست سهلة التعريف والتمييز عن بعضها أو عن غيرها من المصطلحات الأخرى المتعلقة بميدان اللسانيات، وذلك لوجود خلط كبير في استخدام هذه المفاهيم سواء عن غير قصد بسبب الجهل بالقواعد المعرفية لعلم اللسانيات، أو عن قصد لتحقيق أغراض أخرى مبنية بالأساس على اعتبارات سياسية وإيديولوجية أكثر منها معرفية.

ومن أجل التمييز بين اللغة واللهجة، يعتمد علماء اللسانيات – عادة – على مقياس أساسي وهم يطلقون عليه اسم «معيار التفاهم المتبادل» (إضافة إلى اعتمادهم على مقاييس أخرى ذات طبيعة لسانية محضة أقل أهمية). وهذا المعيار ينبني على تحقيق اللغة للوظيفة الأساسية من وجودها وهي التواصل. ومضمون هذا المعيار هو أننا نستطيع القول بأنه إذا لم يتمكن متحدثان من تحقيق الدور الرئيسي للغة أي تحقيق التواصل (بمعنى أنهما لا يستطيعان فهم بعضهما البعض)، فهذا يعني أنهما يتكلمان «لغتين» مختلفتين ومستقلتين حتى لو وجدت بين تلك اللغتين قواسم مشتركة معجمية ونحوية. أما إذا استطاعا التواصل رغم وجود اختلافات معينة في المعجم أو في طريقة النطق أو اللكنة أو حتى في بعض القواعد النحوية، فإن ذلك يعني أنهما يتكلمان «لهجتين» مختلفتين ولكنهما ينتميان إلى نفس اللغة المشتركة والتي غالبا ما تسمى بـ[illegible]ية، أي لغة القراءة والكتابة والتعليم.

يمكن لها أن ترتقي من مستوى الكلام (الثقافة الشفوية) إلى التعبير عن حاجات المجتمع ووظائفه الحيوية (اللغة المدونة) فيما يتعلق بالتفاهم والتعامل والتبادل. وبالتالي يمكن الارتقاء بلسان تخاطب ما من لهجة إلى لغة مادامت كل لغة كانت في أساسها عبارة عن لهجة محلية تطورت بفعل توفر ظروف ملائمة لذلك.

ولو عدنا إلى اللسانيات الأنتروبولوجية وحاولنا أن نفهم كيف نشأ هذا الاختلاف بين اللغات المتعددة، سنجد أن الأمر مرتبط بالتحول من لهجات محلية إلى لغات مختلفة، حيث ظلت المجموعات البشرية منذ ما قبل التاريخ تغير مواقعها باستمرار وتهاجر من مكان لآخر، وكثيرا ما كان ذلك يؤدي إلى انفصال مجموعات معينة عن المجموعات الأصلية ويؤدي التباعد الجغرافي والتغيرات المستمرة التي تعرفها اللغة من جيل إلى جيل، إضافة إلى تأثير اللغات الأخرى، إلى ظهور اختلافات بين اللغات الأصلية وبقية اللغات الجديدة المتفرعة عنها. وفي البداية تكون هذه الاختلافات طفيفة و مع الوقت تزداد حدتها بالتدريج إلى أن يصل الأمر في لحظة تاريخية معينة – تحت ضغط العوامل الجغرافية والتاريخية المختلفة سواء منها الحواجز الجغرافية الطبيعية أو عمليات التلاقح المتواصلة مع لغات أخرى – إلى حدوث قطيعة تواصلية بينها. وعندها يصير التحول من لهجات محلية إلى لغات مختلفة. وحينما يستمر هذا الانفصال مدة طويلة من الزمن يصبح من الصعب جدا حدوث عملية تواصل مشتركة باستخدام هذه اللغات المختلفة حتى ولو بقي هناك جزء لغوي مشترك على المستوى المعجمي أو النحوي، لأن هذا المشترك يكون بلا معنى ما دام لا يقوم بوظيفته الأساسية وهي التفاهم المتبادل. وبذلك يتحول المشترك اللغوي من أساس للتواصل إلى مجرد علامات على الشجرة اللغوية بانتظار أنتروبولوجيين يبحثون في أصول اللغات العالمية وتفرعاتها. وهذا السيناريو حدث باستمرار على مر التاريخ البشري، فكثير من اللغات تشترك في أصل واحد، لكن الناطقين بها لا يستطيعون التواصل فيما بينهم باستخدامها. وعلى سبيل المثال تشترك عدة لغات أوروبية في أصل واحد كاليونانية والايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والمالطية والرومانية وغيرها من اللغات في أصل لغوي لاتيني مشترك إضافة أيضا إلى واقع اشتراكها في جزء كبير من المعجم اللاتيني، لكن هذا لا

يعني أنها ليست لغات مختلفة أو أن الناطقين بها قادرون على التواصل والتفاهم فيما بينهم باستخدامها.

هذا على المستوى العام، أما فيما يخص الوضعية اللغوية في منطقة شمال إفريقيا فإن الخلاف كبير جدا حول استخدام هذه المصطلحات ما بين النخب القومية على اختلاف انتماءاتها عروبية أو أمازيغية، حيث ينظر دعاة القومية العربية لواقع لغوي يتميز بوجود لغة عربية موحدة مع وجود بعض اللهجات الأمازيغية محدودة الانتشار والتي لا ترقى إلى مستوى اللغة، في حين يذهب دعاة القومية الأمازيغية إلى وجود واقع لغوي يتميز بالصراع ما بين لغتين رئيسيتين اللغة العربية واللغة الأمازيغية، وذلك في إطار تصوراتهم عن الصراع الوجودي الشامل ما بين الثقافتين الأمازيغية (الأصيلة) والعربية (الدخيلة) على أرض شمال إفريقيا...

وإذا كان موضوع اللغة العربية (الفصحى) كلغة معيارية موحدة لا يثير الكثير من النقاش حوله - رغم واقع الانتماء المبهم للعربية الدارجة في المغرب والجزائر وعلاقتها بالعربية المعيارية (العربية الفصحى) - فإن الذي يثير الكثير من النقاش والجدال هو ما يتعلق بالواقع اللغوي الأمازيغي بين حدود مفهوم اللغة ومفهوم اللهجة. فالنخب القومية ذات التوه العروبي واضحون في موقفهم من هذا الواقع، حيث يعتبرون أنه لا يوجد هناك شيء اسمه لغة أمازيغية (أو لغات أمازيغية) وإنما يتعلق الأمر فقط بلهجات مختلفة «ما يزال يحتفظ بها البعض» من سكان شمال إفريقيا في مناطق نائية لم يصل إليها التعريب بعد، والتي ينظر إليها كعنصر مشوش للنقاء اللغوي والوحدة اللغوية داخل الوطن العربي يجب تهميشه وإقصائه - في انتظار انقراضه - متذرعين بكونه عنصرا متخلفا وغير مؤهل للتطور أو التقدم. ولطالما رفعوا شعارات التعريب والدفاع عن اللغة العربية في مواجهة هيمنة اللغة الفرنسية (لغة الاستعمار) وهم محقون في ذلك بلا شك، لكن أحدا منهم لم يدافع في يوم من الأيام عن بقية اللغات الأخرى المنتشرة في شمال إفريقيا وعن حقها هي الأخرى في الحصول على مكانتها اللائقة. فكما أن اللغة العربية مكون أساسي من مكونات الهوية اللغوية في منطقة شمال إفريقيا فإن بقية اللغات الأمازيغية الأخرى هي مكونات أساسية من تلك الهوية ولا يجب تهميشها أو إقصاؤها.

بل أكثر من ذلك دعا بعضهم وفي غمرة الانفعال العاطفي إلى إماتة تلك اللغات وتصفيتها نهائيا، كما ذهب إلى ذلك ذات مرة مفكر كبير من طراز محمد عابد الجابري حين قال بأن: « عملية التعريب الشاملة يجب أن تستهدف ليس فقط تصفية اللغة الفرنسية كلغة حضارة وثقافة وتخاطب وتعامل، بل أيضا – وهذا من الأهمية بمكان – العمل على إماتة اللهجات المحلية البربرية (الأمازيغية) منها والعربية (الدارجة). ولن يتأتى ذلك إلا بتركيز التعليم وتعميمه إلى أقصى حد في المناطق الجبلية والقروية، وتحريم استعمال أية لغة أو لهجة في المدرسة والإذاعة والتلفزة غير العربية الفصحى...»[20]. هكذا يراد للغات الأمازيغية التي قاومت لقرون طويلة وبقيت موجودة رغم كل تقلبات الدهر، يراد لها أن تموت وتختفي. لماذا؟ لأن بعض النخب ترى فيها عنصرا مشوشا لشعارات أيديولوجية عن الهوية الواحدة، الخاصة والموحدة.

هذا فيما يخص موقف نخب القومية العربية من واقع التعدد اللغوي في منطقة شمال إفريقيا، أما موقف نخب القومية الأمازيغية فلا يختلف كثيرا عن سابقه في الإستراتيجية التي يتبعها وفي النتائج والخلاصات التي يصل إليها رغم اختلافهما في الشعارات، حيث يجري الحديث كثيرا في أوساط الحركة الأمازيغية عن وجود «لغة أمازيغية موحدة» يتحدث بها الشعب الأمازيغي في منطقة شمال إفريقيا، على أساس أنها مسلمة غير قابلة للنقاش، وأنها أمر واقع لا جدال فيه، بل أن موضوع الدفاع عن «وحدة اللغة الأمازيغية» هو من أولويات هذه الحركة. ويلخص هذا الموقف في الشعار القائل بأن «الحركة الأمازيغية لازالت صامدة من أجل وحدة وطنية باعتبار الهوية واللغة الأمازيغية وحدة واحدة غير قابلة للتجزيء أو التقسيم أو الإدماج أو الاستيعاب أو الإبادة»[21]. إذا ففي نظر أصحاب هذا الطرح فإن اللغة الأمازيغية وحدة واحدة لا يمكن تقسيمها أو تجزيئها.

لكن هذا الطرح المغالي في اللاواقعية، يصطدم بصخرة الواقع التعددي – ليس فقط لإنسان شمال إفريقيا بل وأكثر من ذلك للغات الأمازيغية نفسها – وهذا ليس فقط على مستوى منطقة شمال إفريقيا عامة، وإنما أيضا على مستوى

---

20 – محمد عابد الجابري، مواقف: إضاءات وشهادات. الطبعة الأولى مارس 2003.

21 – أحمد أرحموش، الهويات، الحقوق الثقافية واللغوية، مسار رهان و تحديات. ندوة المنتدى الاجتماعي المغربي الثانية الرباط 2004.

كل بلد من بلدان هذه المنطقة على حدة، حيث تنقسم هذه اللغات إلى ما بين 11 إلى 42 فرعا لغويا مختلفا حسب الدراسات المختلفة، وتنتشر على امتداد جغرافي شاسع. وعلى سبيل المثال تنتشر في المغرب لوحده (حيث يوجد أكبر عدد من الناطقين بتلك اللغات ؛ فأكثر من نصف الناطقين باللغات الأمازيغية في منطقة شمال إفريقيا كلها يحملون الجنسية المغربية) حوالي 3 لغات مختلفة هي - حسب ترتيبها من حيث عدد الناطقين بها - السوسية (تاشلحيت) والزيانية (تامازيغت) والريفية (تاريفيت)، وفي الجزائر أيضا تنتشر حوالي 5 لغات مختلفة هي - حسب ترتيب الناطقين بها - : القبائلية (منطقة القبائل) والشاوية (منطقة الأوراس) والمزابية (منطقة المزاب) والتواركية (الطوارق في الجنوب) و الزناتية (في عدة مناطق متفرقة خاصة في الواحات)، وفي ليبيا توجد حوالي 4 لغات مختلفة هي : الزواغية وسكنة وأوجلة بالإضافة إلى التواركية في الجنوب...

إن هذا الواقع اللغوي التعددي يتناقض بشكل فاضح مع هذا النوع من الأطروحات، لذلك كان لا بد لأصحابها من محاولة تجاوز هذه التناقضات الصارخة عن طريق الحديث - بصورة مكثفة - عن تعدد «اللهجات الأمازيغية» في إطار وحدة «اللغة الأمازيغية»، بدل الحديث عن تعدد « اللغات الأمازيغية» نفسها. وفي هذا الإطار ينظّر الباحث المغربي محمد شفيق لهذا الخطاب بالقول: «إن الأمازيغية ليست لهجة بالمفهوم العربي وليست ديالكت (لهجة) بالمفهوم الأوروبي، بما أنها لا تنحدر من أية لغة ولا تنتمي لها، إنما هي قائمة بذاتها لها قوانينها ولها أسسها اللغوية كجميع اللغات. وكما هو الحال بالنسبة لسائر اللغات الأخرى فللأمازيغية لهجات محلية كالقبائلية والريفية وتامازيغت الأطلس وتاشلحيت وتاماشقت، إلخ ... وتوجد بين هذه الانجازات المحلية فوارق واختلافات لا تمس جوهر النحو الأمازيغي وإنما تطفو على مستوى البنيات الظاهرية وخصوصا على مستوى النطق»[22] . ويستمر هذا الطرح بالادعاء بأن : «الفوارق التي تميز اللهجات بعضها عن بعض فوارق فونولوجية بالدرجة الأولى، أحدثها طول عهد الأمازيغية بالوجود أولا وضعف عمل التدوين ثانيا. ومن هذه الزاوية يمكن القول من الممكن إرجاع النطق باللفظ إلى أصله الأول... وقد أشرت سابقا إلى

---

22 - محمد شفيق، استقراء الأمازيغية الفصحى من الأمازيغية المتداولة. الثقافة الشعبية الوحدة في التنوع. أعمال الدورة الأولى للجامعة الصيفية بأكادير. 1980، ص 191.

أن وحدة اللغة الأمازيغية أمر واقع ملموس تحجبه أحيانا فوارق فونولوجية لا ينخدع بها إلا الجاهل لأبسط قواعد اللسانيات...»[23]

إذا – فحسب هذا الطرح – الفوارق والاختلافات في الأمازيغية هي فوارق شكلية وتقتصر على طريقة النطق فقط دون أن تمس جوهر النحو الأمازيغي. لكن الواقع يقول غير ذلك لأن الاختلافات بين اللغات الأمازيغية لا تقتصر على طريقة التلفظ فقط بل تتعداها إلى جميع المستويات الأخرى المعجمية وحتى النحوية. وتجدر الإشارة هنا إلى الفوارق الكبيرة الموجودة بين لغة واحة سيوة في مصر – والتي توصف بأنها لغة أمازيغية – مع بقية لغات شمال غرب إفريقيا، بسبب التأثر الكبير لتلك اللغة بروافد مصرية قديمة سواء على المستوى المعجمي أو النحوي أو الصرفي. وحتى داخل المجموعة اللغوية الواحدة توجد فوارق بنيوية عديدة كما هو الحال بين اللغات التوارقية المنتشرة في منطقة الصحراء الكبرى والمتأثرة بشكل كبير باللغات النيجرية والمالية (بسبب القرابة الجغرافية والوراثية الكبيرة للتوارك بهؤلاء) أكثر من تأثرها ببقية اللغات الأمازيغية في شمال غرب إفريقيا والتي تعرف هي الأخرى تأثرا مشابها بالبنيات اللغوية العربية والمعجم العربي بدرجة كبيرة. وعلى سبيل المثال يبلغ هذا المشترك المعجمي إلى حوالي 38 % بين القبايلية (شمال الجزائر) والعربية، وحوالي 35 % بين الشاوية (شمال شرق الجزائر) والعربية، وهي نسبة عالية جدا تجعل هذه اللغات أقرب إلى العربية منها إلى بعض اللغات الأمازيغية الأخرى خاصة تلك البعيدة جغرافيا. وتبلغ نسبة المعجم العربي في لغة تاشلحيت (جنوب المغرب) حوالي 25 %، وهي نسبة مهمة لا يستهان بها، رغم البعد الجغرافي الكبير بين منطقة انتشارها بسوس والأطلس الكبير والمنطقة التي جاء منها هذا التأثير العربي[24].

وحتى تلك اللغة الليبية القديمة التي عثر على نقوش لها منذ أزيد من قرن ونصف (منذ سنة 1842 م)، لم يستطع أحد فك رموزها تماما وما تزال مستعصية على الفهم إلى الآن رغم العثور على نصوص مرافقة لها بالبونية

---

23 – محمد شفيق، حول المعجم الأمازيغي. الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، أيام الثقافة الأمازيغية 1990. ص 58.

24- Gabriel Camps. 1981. L'origine des berbères. Anthropologies du Maghreb, sous la direction de Ernest Gellner. Les Cahiers C.R.E.S.M. Éditions CNRS. Paris.

(الفينيقية القرطاجية) واللاتينية. ولو كان ما قاله الأستاذ شفيق صحيحا من أن الفوارق بين اللغات الأمازيغية هي شكلية فقط لتم فك رموز تلك اللغة القديمة بسهولة تامة، ما دام – هو نفسه – ينقل عن الباحث الفرنسي أندريه باسيت قوله بأن: «بنية اللغة الأمازيغية وعناصرها وأشكالها الصرفية تتسم بالوحدة إلى درجة أنك إن كنت تعرف حق المعرفة لهجة واحدة منها استطعت في ظرف أسابيع أن تتعلم أي لهجة أخرى. تدلك على ذلك التجربة، إذ اللغة هي اللغة نفسها... وتتجلى وحدة اللغة الأمازيغية في الزمن أيضا، لأن بطء التطور الحضاري ساعد على استقرار المعطيات اللغوية»[25]. فلو كان ذلك صحيحا لما استعصت تلك اللغة عن الفهم رغم مرور حوالي قرن ونصف على اكتشافها، ما دامت اللغة هي اللغة نفسها وما دام بطء التطور الحضاري أدى إلى استقرار المعطيات اللغوية... فلماذا إذاً هذا العجز عن الفهم وفك رموز تلك اللغة ؟ رغم الادعاءات الكثيرة بأن هذه اللغة ربما كانت هي أصل اللغات الأمازيغية الحالية.

وحتى لو قبلنا مع الأستاذ شفيق بأن الفوارق في اللغات الأمازيغية هي فونولوجية بالأساس وأنها كلها تشترك في البنيات النحوية ذاتها، حتى لو قبلنا بكل ذلك – رغم اعتراضنا الشديد عليه – فمن قال بأن «النحو» هو جوهر اللغة وأساسها ؟ فكما بيّنّا – في ما سبق – أن جوهر اللغة هو مقياس «التفاهم المتبادل» أي قدرة اللغة على لعب وظيفتها الأساسية والأولى كأداة للتواصل المشترك بين جميع الناطقين بها وليس أي شيء آخر، فكيف يمكن إذاً أن نقول بوحدة لغة لا يستطيع الناطقون بها أن يتفاهموا فيما بينهم إلا إذا استخدموا لغات أخرى ؟!

وعلى سبيل المثال فمعظم المغاربة الناطقين بلغة « تاشلحيت «أو» تاريفيت «أو» تامازيغت «لا يستطيعون التواصل فيما بينهم باستخدام هذه اللغات المختلفة، وفي غالب الأحيان ما يلجأ هؤلاء إلى العربية الدارجة كلغة مشتركة للتواصل والتفاهم. ومن الأمثلة الشخصية على ذلك أنني (كاتب هذه السطور) وبالرغم من كوني أتكلم لغة «تاشلحيت» بطلاقة على اعتبار أنها لغتي الأم ولغة أمي، كنت – وما أزال – عاجزا عن فهم اللغتين الريفية (تاريفيت) والزيانية (تامازيغت) رغم القرب الجغرافي الكبير معها، وحتى محاولاتي العديدة لفهم

25 – محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين. دار الكلام الرباط، 1989. ص 59.

القبائلية - بسبب إعجابي الكبير بمغنيها الكبار (إيدير، الحسناوي، سليمان إزم...) وبموسيقاها ذات الطابع المتوسطي الغني والمتنوع - باءت كلها بالفشل، وذلك رغم قدرتي المتواضعة على استيعاب معاني بعض الكلمات المشتركة والتي - وللمفارقة - جزء مهم منها هي كلمات ذات جذور عربية. وما أزال أتذكر إلى الآن ذلك اليوم الذي تعرفت فيه إلى أحد الزملاء في الجامعة والذي بدا لي من لكنته وهو يرد التحية أنه أمازيغي فحدثته بتاشلحيت لكنه صمت قليلا قبل أن يرد علي بلغة غير مفهومة لم أستوعب منها شيئا، اتضح لي من نبرتها أنها ريفية (علمت فيما بعد أنه من منطقة الريف شمال المغرب)، فما كان منا إلا أن صرنا نتحدث بالعربية (الدارجة) بعد أن اتضح لكلانا بأن لغتينا الأمازيغيتين «المختلفتين» غير قادرتين على القيام بدورهما الأساسي في إنجاز عملية التواصل. لقد جعلتني تلك الحادثة أفتح عيني على حقيقة اختلاف اللغات الأمازيغية المتقاربة جغرافيا داخل نفس البلد وضمن نفس المجموعة البشرية، ناهيك عن اللغات الأخرى المتباعدة جغرافيا كتلك المنتشرة في الصحراء الكبرى أو في أقاصي مصر وليبيا وباقي مناطق شمال إفريقيا الشاسعة. كما أنني ما زلت أتذكر على قرار إلغاء نشرات الأخبار التي كانت تعرض باللغات الأمازيغية الثلاثة في التلفزيون المغربي والمعروفة بنشرة اللهجات، وتعويضها بالنشرة الأمازيغية «الموحدة» والتي انتهى بها الأمر بأن تحولت إلى خليط عجيب وغريب من اللغات المختلفة (أو «سَلطَة» اللغات كما يحلو للبعض تسميتها) والتي يتوه المرء وهو يتابعها فلا يكاد يخرج منها بمعلومة واحدة مستقيمة.

وفي الواقع، فقد أدت الأبحاث العديدة في علم اللسانيات التي أجريت في منطقة شمال إفريقيا إلى تزايد الاقتناع بعدم وجود شيء اسمه لغة أمازيغية موحدة، وأن الفرع اللغوي الأمازيغي من الأسرة اللغوية الآفروآسيوية ينقسم بدوره إلى عدة لغات مختلفة تنتشر على امتداد منطقة شمال إفريقيا والصحراء الكبرى. وقد ذهب «براس» Prasse K.G في السابق إلى أن التواركَية يمكن اعتبارها لغة مستقلة وليست مجرد لهجة أمازيغية، وبنا هذا الطرح على أساس معيار التفاهم المتبادل بين التواركَية وبقية لغات شمال غرب إفريقيا، حيث اكتشف أن غياب هذا المعيار يجعل من مسألة التفرقة اللغوية بينها أمرا لا مناص

منه. كما لاحظ أيضا أن التواركية تنقسم بدورها إلى عدة وحدات لغوية فرعية هي «تاماهيغت» المنتشرة في جنوب الجزائر وجنوب ليبيا، و «تاماجيغت» في النيجر، و «تاماشيغت» في مالي[26]. في حين اقترح الباحث الألماني «ويلمز» منذ سنة 1980 تقسيما يطغى عليه الطابع الجغرافي، حيث اعتبر الأمازيغية مقسمة إلى أربع وحدات كبرى: تتكون الأولى من الشلوح (أو أمازيغ الجنوب المغربي) وزيان (الأطلس المتوسط) وزمور، وتتكون الثانية من بني يزناسن وصنهاجة وبني سنوس والريف. أما الثالثة فتتألف من مزاب وورغلة ونفوسة والشاوية وسيوه والتوراك. في حين تتألف المجموعة الرابعة من القبايل لوحدها[27]. ويلاحظ على هذا التقسيم أنه لا يشمل جميع اللغات الأمازيغية حيث يقصي لغة زناغة (صنهاجة) في موريطانيا وتلك المنتشرة في الجنوب التونسي في جربة فلا يذكرهما أصلا، كما أنه أثار جدلا كبيرا في أوساط علماء اللسانيات، حيث رفض كثيرون اعتبار القبايلية مجموعة مستقلة لوحدها واعتبروها جزءً من الزناتية المنتشرة بين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، في حين رأى فيها البعض الآخر إحدى تنويعات الزناغية (الصنهاجية) المتأثرة بالزناتية. في حين جرى رفض دمج التواركية مع باقي لغات المجموعة الثالثة على اعتبار وجود تنوع كبير في صفوف التوارك، إضافة إلى أنهم لا ينحصرون فقط في منطقة الهكار في الجزائر بل ينتشرون في منطقة شاسعة من الصحراء الكبرى[28]. وتقدم الباحثة المغربية مفتاحة عمور تقسيما آخر مختلفا مبنيا على أسس إثنية ووراثية مع الأخذ بعين الاعتبار مجموعة من الخصائص الأخرى ذات الطابع السوسيو- ليساني والفونولوجي والمرفولوجي والنحوي لتلك اللغات المدروسة[29]. وأخيرا تقترح الباحثة الروسية «ألكساندرا أيخنفالد» Alexndra Aikhenvald تقسيم اللغات الأمازيغية إلى أربع وحدات كبرى على أساس موروفولوجي (الضمير والصفة

---

26 -Prasse K.G. 1972 Manuel de grammaire touarègue (Tahaggart) : Phonétique,Ecriture, Pronoms. Copenhague Akademisk Forlag, .

27 - Willms. 1980 Die dialektale Differenzierung des Berberischen, Berlin, Verlagvon Dietrich Reimer.

28 - Louali N. (1992). Le système vocalique touareg. Pholia 7 (CRLS-Université Lumière Lyon 2) : p 83-115.

29 - Ameur, M. À propos de la classification des dialectes berbères, Études et Documents Berbères, 7, 1990. P. 15- 27.

والنوع) ونحوي (ترتيب مكونات الجملة والمميزات البنيوية للفاعل والمفعول به) وقد جاء هذا التقسيم كالآتي : تتكون المجموعة الأولى من أمازيغية الغرب (الزناغية في موريطانيا)، والثانية من أمازيغية الجنوب (التواركية فيالصحراء)، والثالثة من أمازيغية الشرق (ليبيا ومصر)، والرابعة من أمازيغية الشمال في المغرب والجزائر وتونس وليبيا (زواغة)"[30].

وانطلاقا من كل ذلك يمكن أن نقول بأن مشكل تقسيم اللغات الأمازيغية وتصنيفها لا يزال بعيدا عن الحل ما دامت كل تلك المحاولات غير مكتملة، حيث يجري غالبا اعتماد معطى واحد وإقصاء معطيات أخرى عديدة، مما يؤدي إلى نتائج متباينة وحتى متناقضة في بعض الأحيان.

وأياً كانت الأمور سواء اتفقنا مع تلك التصنيفات أو لم نتفق، فإن هناك شبه إجماع بين علماء اللسانيات والدارسين للغات الأمازيغية على عدم وجود شيء اسمه «لغة أمازيغية موحدة» إلا في أذهان البعض، فقد اتفق الجميع على أن الفرع اللغوي الأمازيغي ينقسم إلى عدة لغات مستقلة ومختلفة، ورغم أنهم اختلفوا بدورهم في عدد هذه اللغات وفي المجموعات الفرعية التي تنتمي إليها كل لغة على حدة، لكنهم لم يختلفوا أبدا في عدم وجود لغة أمازيغية موحدة لأن القول بذلك يتعارض مع أبسط الحقائق الواقعية الواضحة للعيان.

ولأن نخب القومية الأمازيغية تعي جيدا عمق هذه الاختلافات بين اللغات الأمازيغية المتعددة والتي تصل إلى درجة القطيعة التواصلية بينها، فإنها – شأنها شأن بقية النخب القومية الأخرى – تلجأ إلى الاحتيال للقفز على واقع التعدد اللغوي ومحاولة تجاوزه، كما قامت بذلك من قبلها نخب القومية العربية في شمال إفريقيا، حيث ادعوا جميعا بأن اللغات الأمازيغية القائمة ليست سوى «لهجات» لا ترقى لمستوى اللغة، لتبرير واقع تهميش وإقصاء هذه اللغات وتعويضها بلغة أخرى «أسمى» . وإذا كان موقف نخب القومية العربية في شمال إفريقيا تجاه اللغات الأمازيغية مفهوما على اعتبار أن الاعتراف بها كلغات قائمة بذاتها يشكل تهديدا للشعارات القومية عن « عروبة شمال إفريقيا «وعن» وحدة

---

30 - Aikhenvald A.Y.A Structural and Typological Classification of Berber Languages, Progress Tradition in African and Oriental Studies Special Issue, n° 21, 1988. P. 37-43.

اللغة العربية والوطن العربي من المحيط إلى الخليج»... فإن من غير المفهوم تماما أن تقوم نخب الحركة الأمازيغية (التي تحولت هي الأخرى إلى نخب قومية) بمحاولة استهداف تعدد تلك اللغات وهي التي كانت ولزمن طويل ترفع شعارات التعددية اللغوية والدفاع عن اللغات الأمازيغية من خطر الانقراض حينما يتعلق الأمر بالعلاقة مع اللغة العربية، لكنها ترفض تلك التعددية حينما يتعلق الأمر بالواقع اللغوي الأمازيغي ذاته، وتدافع بغرابة عن لغة أمازيغية موحدة لا توجد إلا في أذهان بعض النخب!!! فما الذي تغير الآن حتى صارت هذه النخب تعيش التناقض الصارخ وتطالب بإعدام هذه اللغات تحت مسمّيات وحدة اللغة الأمازيغية؟ وهي التي لطالما رفعت ذلك الشعار الشهير عن «الوحدة في التعدد». الجواب بسيط للغاية: إنها النزعة القومية ذاتها والتي ترى في أي تعدد أو تنوع خطرا عليها وعلى مقولاتها عن وحدة اللغة والعرق والثقافة والتاريخ.

ومن بين المشاريع العديدة لاستهداف واقع التعدد اللغوي الأمازيغي، ما يعرف باللغة الأمازيغية «المعيارية» (أو الأمازيغية الفصحى!!) التي تعرف بأنها اللغة الأمازيغية «الموحدة»، والتي يراد منها تجاوز هذا التعدد مادام أن: «الأمازيغية كيان لساني موحد ومشترك يتجاوز اللهجات المحلية...»[31]، على حد تعبير أحمد بوكوس (عميد المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في المغرب) والذي يرى أن تقسيم الأمازيغية إلى عدة لغات مختلفة ـ كما هو واقع الحال منذ آلاف السنين وحتى اليوم – يحول دون تعبيرها وبالتالي يؤدي إلى إضعافها. ومن ثم يجري الدفاع عن لغة معيارية موحدة تحت غطاء ضرورة التنميط والتقعيد اللغوي للأمازيغية حتى يسهل تدريسها ودمجها في الحياة العامة وفي جميع أنشطة المجتمع.

لكن هذا الرأي وإن كان يتضمن جانبا من الحقيقة فيما يتعلق بنقل اللغات الأمازيغية من مستوى الكلام (الثقافة الشفوية) إلى مستوى اللغات المقعّدة التي تعبر عن حاجات المجتمع والتي تواكب تطوراته (اللغة المدونة) خاصة وأن معظم هذه اللغات ما تزال في مستوى التعبير عن الأشياء ولم تخضع بعد لعملية انتقال إلى مستوى التعبير عن المفاهيم المجردة وذلك بسبب استمرار ارتباطها بالواقع

31- أحمد بوكوس، في اللغة الأمازيغية. الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، أيام الثقافة الأمازيغية 1990. ص 19 - 22.

الاجتماعي في مستوياته الدنيا واستمرار إقصائها عن المجالات الحيوية التي ستضمن تطورها ورقيها كالتعليم والاقتصاد والقضاء والإعلام (والتي تسيطر عليها للأسف الشديد اللغة الفرنسية تزاحمها في ذلك وباستحياء شديد اللغة العربية، وهو واقع موروث عن الفترة الاستعمارية خاصة في المغرب والجزائر وتونس،...)، إلا أن هذا الرأي يحمل مضامين خطيرة أخرى على اللغات الأمازيغية نفسها. فبدل محاولة تطوير هذه اللغات المتعددة وتعبيرها انطلاقا من المعطيات الموجودة على الأرض والتي يتداولها الناس في حياتهم اليومية، يراد تصفية تعددية تلك اللغات التي ظلت حية لزمن طويل ومقاومة لكل الظروف المعادية، وتذويبها في لغة واحدة معيارية توصف بأنها اللغة الأمازيغية الفصيحة في مقابل اللهجات الأمازيغية العامية. هذه اللغة الافتراضية التي لا وجود لها في الواقع ولا يفقهها أحد، لغة اخترعتها قلة قليلة من نخبة ذات نزوع قومي لا لشيء سوى لتعبر عن أوهام نفسية مرتبطة بإرادة الاستعلاء النخبوي واحتقار لغة العامة التي ليست سوى «لهجة» لا ترقى إلى مستوى اللغة، رغم أن تلك النخب نفسها تستخدم تلك «اللهجات» في التواصل مع بعضها البعض. ومن المفارقات العجيبة ما قاله أحمد عصيد ذات مرة وهو ينتقد العلماء الأمازيغ في سوس - وعلى رأسهم المختار السوسي - الذين كانوا يحرصون على تعلم العربية والكتابة بها، ووصفهم بأنهم كانوا يحتقرون لغتهم الأم وأنهم إنما فعلوا ذلك بحثا عن «امتياز ورفعة مقام تمنحها إياه المعرفة بلغة سرية لا يعرفها العوام»[32]، فصار هو نفسه ومعه بقية النخب الأمازيغية الجديدة القابعين في أروقة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يدافعون عن لغة سرية (يسمونها الأمازيغية المعيارية والموحدة) لا يفهمها العوام من أبناء شعبهم والذين يتداولون مجموعة من اللغات المتعددة والمختلفة التي تعلموها عن آبائهم وأجدادهم على امتداد آلاف السنين، في موقف من التناقض المؤسف والذي يفضح المستور في أذهان هؤلاء الذين يبحثون كغيرهم عن امتيازات نخبوية ورفعة مقام.

32 - أحمد عصيد، الأمازيغية في خطاب الإسلام السياسي. منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، الطبعة الأولى 1998، ص 95.

ولو قبلنا بمنطق اللغة الموحدة فسيكون على الناطقين باللغات الأمازيغية أن يتعلموا «لغة جديدة» لا يفهمونها لأن لغتهم الأم لا قيمة لها في نظر النخب القومية من أبناء جلدتهم الذين طالما رفعوا شعارات الدفاع عن التعدد اللغوي من خطر الإبادة العروبي، فصاروا هم أنفسهم يشكلون خطرا كبيرا على ذلك التعدد وعلى إمكانية استمراره مستقبلا.

ومن بين الأشياء العديدة التي ينتهجها منظرو الأمازيغية الموحدة محاولة تصفية الكلمات العربية من المعجم الأمازيغي المتداول باعتبارها كلمات «دخيلة» وغير أصلية، فيما يسمونه بمنهج «طرد الكلمات العربية» والتي يعبرون عنها بعبارة فرنسية (أقل ما يمكن أن توصف به أنها كريهة وعنصرية) وهي : la chasse aux mots arabes (معناها طرد الكلمات العربية أو اقتناصها)، وهو ما يعني محاولة التخلص من جزء مهم من المعجم اللغوي الأمازيغي الذي يبلغ نسبا مهمة تصل في حدها الأقصى إلى حوالي 38 % (أزيد من الثلث) في القبائلية في الجزائر وفي حدها الأدنى إلى حوالي 25 % (حوالي الربع) في لغة تاشلحيت بالمغرب، ومحاولة تعويضها بكلمات أخرى توصف بأنها «أصلية» رغم أنها اخترعت حديثا في مختبرات الأكاديمية البربرية في باريس أو المعهد الملكي في الرباط أو في أروقة بعض الجمعيات والمنتديات الأخرى، والتي لا علاقة لها باللغات الأمازيغية المتداولة لدى الناس في حياتهم اليومية، حيث يعد المعجم العربي مجالها الحيوي للاقتراض منه كلما لزم ذلك. إن هذا النوع من الانحرافات الأيديولوجية يعبر فقط أعراض مرضية لدى النخب القومية الجديدة التي تبحث عن «النقاء اللغوي» عن طريق تصفية جزء مهم من الموروث اللغوي الأمازيغي الذي نتج عن عملية تفاعل لغوي مع العربية امتدت لأزيد من عشرة قرون مضت.

لقد صارت معركة «توحيد الأمازيغية وتعييرها» التي تخوضها النخب ذات النزوع القومي داخل الحركة الأمازيغية معركة حياة أو موت بالنسبة لواقع التعددية في الهوية اللغوية لسكان شمال إفريقيا وأيضا للغات الأمازيغية المتعددة التي يراد لها أن تبقى مقصية دائما عن حقها في الوجود وأن يستمر تهميشها وإبعادها عن واقع الحياة الاجتماعية، تحت شعارات كونها مجرد لهجات وأنها ناقصة ولا ترقى إلى مستوى اللغة...إلخ. لذلك صار من الضروري الدفاع عنها وعن حقها في الوجود والتطور الطبيعي ورفع التهميش والإقصاء عنها والذي تمارسه النخب

القومية جميعها باختلاف ولاءاتها وانتماءاتها الأيديولوجية سواء العروبية منها أو الأمازيغية.

ولعل من المفيد أن نختتم هذا الموضوع بموقف واحد من أهم الباحثين الجادين في المسألة الأمازيغية هو الباحث الجزائري سالم شاكر والذي يقول بأن: «فكرة اللغة الموحدة في مجموع التراب الشاسع التي تنتشر فيه، وعند جميع متكلميها هي مجرد سراب، وأن من الخطورة بمكان التفكير في إنشاء أمازيغية كلاسيكية والتي ستكون بلا شك بعيدة كل البعد عن الاستعمال اليومي...»[33].

IV – الجذور القديمة لواقع التعدد اللغوي في منطقة شمال إفريقيا

ما يزال هناك خلاف عميق حول الزمن الحقيقي لظهور الفرع اللغوي الأمازيغي وانفصاله عن مجموع الأسرة اللغوية الأفروآسيوية، حيث يذهب بعض الباحثين إلى أن هذا الزمن يعود إلى فترة جد قريبة لا تتجاوز 200 ق.م، وذلك اعتمادا على المعطيات اللسانية واللغوية التي تميل إلى اعتبار وجود تنوع لغوي أقل داخل هذا الفرع مع ملاحظة وجود تقاربات كبيرة بين اللغات المكونة له مقارنة بالتنوع الكبير الحاصل في الفروع اللغوية الأفروآسيوية الأخرى كالسامية أو التشادية مثلا. في حين يذهب باحثون آخرون إلى اعتماد زمن آخر يقدر بحوالي 6000 ق.م، اعتمادا على معطيات لسانية أخرى تقول بأن الفرع اللغوي الأمازيغي مختلف بدرجة كبيرة عن بقية الفروع الأخرى للأسرة الأفروآسيوية، وبالتالي فإن تاريخ انفصاله عنها يجب أن يكون قديما جدا.[34] وهو ما يجعل موضوع تحقيب ظهور الفرع اللغوي الأمازيغي مسألة غاية في الصعوبة بسبب وجود معطيات عديدة متضاربة وحتى متناقضة في بعض الأحيان.

هناك فرضيتان ممكنتان تطرحان لحل هذه المعضلة، أولاهما فرضية كون الفرع اللغوي الأمازيغي قديم جدا وكان يعرف تنوعا لغويا كبيرا في داخله، لكن في مرحلة ما تسبب حدث تاريخي معين في عملية تقريب مجموع اللغات الأمازيغية المتنوعة ولكن المتقاربة فيما بينها أصلا، والمثال المعروف على ذلك هو

33 - Chaker, Salem. 1989, Berbères aujourd'hui . L'Harmattan.p.39

34 - Behrens. P. 1989. Langes et migrations des premiers pasteurs du Sahara : la formation de la branche berbère. Libya Antiqua : 31/53.

ما حصل من تقارب كبير بين فرع الهوسا من جهة واللغات التشادية الغربية من جهة أخرى في فترة تاريخية متأخرة، ما أدى إلى حصول نوع من التمازج الكبير فيما بينها. والفرضية الثانية أن اللغات الأمازيغية انتشرت في مرحلة مبكرة، ولعبت العوامل الاجتماعية دورا كبيرا في بقاء لغاته متقاربة بسبب وجود نوع من التقارب الجغرافي ما بين المجموعات المختلفة، ما قلل من عوامل التنويع والتباعد اللغوي وجعل هذه اللغات تبدو متقاربة كما هي عليه اليوم، والمثال المعروف عن هذا النوع من الأحداث هو ما حصل في منطقة الساحل مع اللغات الإفريقية الغربية التي انتشرت منذ أزيد من 1000 سنة على امتدادا مساحة تتجاوز 2000 كلم، لكنها ما تزال تحافظ على تقارب كبير جدا وتنوع محدود في لغاتها المختلفة.[35]

ولو بحثنا في الجذور التاريخية لواقع التعدد اللغوي في منطقة شمال إفريقيا، فسنجد أن هذا التعدد الذي كان قائما منذ ما قبل التاريخ وما يزال مستمرا إلى اليوم. وفي محاولة منا للقيام بقراءة مزدوجة للمعطيات اللغوية والمعطيات الأنتروبولوجية المتعلقة بمنطقة شمال إفريقيا، يمكن أن نستنتج أن واقع التعدد اللغوي هو نتيجة لواقع التعدد الإثنولوجي في المنطقة : فمن المعروف تاريخيا أن هذه المنطقة كانت ومنذ القدم تعرف تنوعا بشريا كبيرا جاء نتيجة تعدد الهجرات البشرية التي ظلت تتحرك باستمرار من الشرق نحو الغرب منذ الإنسان القديم والسلالات العطيرية والإيبرو- موريتانية قبل أزيد من 13 ألف سنة ق.م، مرورا بالسلالة القفصية منذ حوالي 7 آلاف سنة ق.م، وصولا إلى سلالة العصر الحجري الحديث قبل حوالي 3 آلاف سنة ق.م (راجع الفصل الثالث). وقد تم البرهان على وجود علاقات وراثية قديمة بين شعوب إفريقيا جنوب الصحراء والشعوب القديمة لأوروبا الغربية (قبل الهجرات الهندوأوروبية) حتى وقت قريب.

ويعتقد بعض الباحثين أن اللغات الأمازيغية انتشرت في المنطقة مع هجرات تاريخية تعود إلى أزيد من 10 آلاف سنة ق.م وأن هذه الهجرات ترافقت مع انتشار الزراعة بالمنطقة[36]. ويستخدم كامبس مصطلحين للتعبير عن اللغات القديمة

---

35 - Blench. R. 2001. Types of language psread and their archeological correlates : the example of berber. Origini XXIII, P.177.

36 - Diamond J, Bellwood P (2003) Farmers and their languages: the first expansions. Science 300:597-603.

في شمال إفريقيا هما: «الأمازيغية القديمة» ويقصد بها اللغة التي يمكن أن تكون السلف المباشر للغات الأمازيغية المتداولة حاليا في شمال إفريقيا. و«الأمازيغية البدائية»، والتي يقصد بها اللغة التي كانت متداولة لدى مجموعات للعصر الحجري والتي انشقت مباشرة من الأسرة اللغوية الأفروآسيوية[37]. وبما أن اللغات المتشرة في شمال إفريقيا وفي المنطقة القريبة من آسيا (الشرق الأوسط) تنتمي كلها إلى المجموعة اللغوية الأفروآسيوية[38]، فإن هكذا هجرة لا بد وأن أصحابها كانوا يتحدثون لغة سابقة على الأفروآسيوية، أو على الأقل نسخة بدائية عنها. هؤلاء ربما كانوا أحضروا معهم - ضمن آخرين - السمات الوراثية E3B ول (أنظر الفصل الثالث عن الإنسان في شمال إفريقيا)، وبعد ذلك ظهرت السمة الوراثية (M-81 E3b2) في شرق إفريقيا وحملها معهم مهاجرون من العصر الحجري الحديث إلى شمال إفريقيا التي كانت منطقة قليلة التعمير، ليطغى هؤلاء - وراثيا - على من سبقهم من الشعوب الأخرى المستقرة بالمنطقة. وبالطبع طغت لغتهم الأفروآسيوية القريبة من السامية والمصرية القديمة على اللغات السابقة عليها في المنطقة حتى ولو بقي من تلك اللغات البدائية الموغلة في القدم بعض الآثار المعجمية البسيطة. وربما سهل انتماء كل هذه الموجات البشرية إلى نفس الوعاء البشري والحضاري (سنعود إلى تفصيل معنى الوعاء الحضاري في مكان لاحق من هذا الفصل) في عملية الاندماج والانصهار البشري واللغوي، على اعتبار أن جميع هذه الموجات البشرية المهاجرة جاءت من نفس المنطقة الشرقية تقريبا وتنتمي كلها إلى ما يعرف بالفرع الأفروآسيوي الذي ظل يغطي منطقة جنوب البحر الأبيض المتوسط (المشرق العربي وشمال إفريقيا) وامتدت تأثيراته حتى أوروبا ما قبل الهجرات الهندوأوروبية.

ويقدم علماء اللسانيات بعض الأمثلة المعجمية عن ما يعتبرونه الأمازيغية البدائية التي يعتقد أنها كانت متداولة في صفوف المجموعات القفصية القديمة التي عاشت في منطقة شمال إفريقيا منذ أزيد من سبعة آلاف سنة، ويتعلق جميع هذه المفردات بأسماء الحيوانات و النباتات والتي تتداول أشكال مختلفة منها

---

37 - Camps. G. 1980. Berbères, au marge de l'histoire. Hespérides : Toulouse, P 34.

38 - Ruhlen M. 1991. A Guide to the World's Languages. Vol 1. Edward Arnold, London. P.239.

في معظم اللغات الأمازيغية المنتشرة في المنطقة، من قبيل كلمات : «أغاض / تغاضت» (الكبش / النعجة) والتي تشترك فيها جميع اللغات الأمازيغية تقريبا، و «إكيكر / إكير...» (الحمص) والتي يعتقد أنها ليست كلمة لاتينية وإنما هي أمازيغية بدائية انتقلت إلى اللاتينية عقب الغزو الروماني للمنطقة، وكلمات «تخسي» (الماشية) و «أولي» (الغنم) التي تشترك فيها معظم اللغات الأمازيغية، و«أفوناس / تافوناست» (الثور / البقرة) المنتشرة في عدد كبير من اللغات الأمازيغية والتي يرجح أنها أيضا قديمة جدا وفقا لمقارنات لسانية عديدة. ويشير الباحثون في هذا الصدد إلى عادة تزيين بيض النعام برسوم وأشكال هندسية متنوعة (الجزائر، تونس) والتي كانت إحدى أهم خصائص الحياة القفصية الواضحة التي استمرت خلال العصر الحجري الحديث حتى الوقت الذي ذكرت فيه الشعوب الليبية في السجلات التاريخية، مثل الجرمانتيين Germantes في الجنوب، وهو ما يؤكد أنه ربما بقيت بعض الخصائص الثقافية القفصية حتى فترة حديثة نسبيا وأنها ربما انتقلت منهم إلى مجموعات العصر الحجري الحديث بعض اندماج المجموعتين ببعضهما البعض وهو ما تؤكده معطيات عديدة أثرية ووراثية. وإذا كانت بعض مظاهر الفنون والعادات الثقافية قد بقيت موجودة منذ القفصيين فهذا يعني أنه ربما كانت بعض العناصر اللغوية قد بقيت موجودة هي الأخرى وانتقلت بدورها إلى اللغات الجديدة رغم هيمنة العناصر الحديثة لمجموعات العصر الحجري الحديث عليها، مع بقاء انتماءهما معا إلى المجموعة الأفروآسيوية لغة وثقافة.

وفي سياق عام، يعتبر سكان شمال إفريقيا كإحدى أهم المجموعات البشرية في هذه منطقة البحر المتوسط التي كانت لها تأثيرات ثقافية (التقارب اللغوي) ووراثية (التقارب الجيني) بين شعوب أوروبا وشعوب إفريقيا جنوب الصحراء. وتؤكد التقاربات اللغوية بين الفرع الأمازيغي والفرع التشادي المنتميان إلى نفس الأسرة اللغوية الأفروآسيوية، وجود تقاربات ثقافية بين المجموعتين حتى زمن يعود إلى حوالي 15 ألف سنة مضت. وربما يتناقض ذلك مع المعطيات الوراثية وحتى مع ما يلاحظ حاليا من اختلاف مورفولوجي كبير بين الهوساذوي الأصول الجنوب – صحراوية والملامح الزنجية وبين المجموعات الأمازيغية في شمال

غرب إفريقيا بما في ذلك الجنوبية منها والتي تعيش على تخوم الصحراء مثل السوسيين (الناطقين بتاشلحيت في منطقة سوس) في الجنوب المغربي والذين يظهرون طابعا أكثر قوقازية (العرق الأبيض)[39]. ويمكن تفسير ذلك بالمدة الزمنية الكبيرة التي استغرقها الاتصال الثقافي بينهم وإمكانية انتقال اللغة، مع وجود اختلاط وراثي ضعيف نسبيا. كل ذلك يبين علاقات التفاعل الوراثي والثقافي التي حدثت في منطقة شمال إفريقيا وغربها على امتداد 40 ألف سنة الماضية، وتؤكده أيضا علاقات الترابط الوراثي بين المجموعات الأمازيغية وبعض شعوب أوروبا الغربية (الباسك، كتالانيا، الأندلس، البرتغال، إيطاليا...) وعلاقات الترابط اللغوي بينها وبين بعض شعوب إفريقيا جنوب الصحراء.

وإذا كان ظهور اللغات الأمازيغية قد أدى إلى اختفاء اللغات القديمة التي سبقتها في منطقة الصحراء الكبرى – كما أدى التوسع الهندوأوروبي إلى اختفاء عدد كبير من اللغات الأوروبية القديمة رغم أن بعضها بقي موجودا إلى اليوم مثل اللغة الباسكية – فإنه من المحتمل جدا أن تكون الشعوب التي كانت تسكن الصحراء وتتكلم اللغات النيلو– صحراوية أو النيجر– كردوفية، قد احتفظت لمدة طويلة بلغاتها وقد أدى ذلك إلى حدوث عملية تأثير وتأثر كبيرة بين اللغات الأمازيغية وتلك المنتشرة في منطقة الصحراء الكبرى.

وكما هو معروف، فقد مرت مراحل التعمير البشري في منطقة شمال إفريقيا بسياق جغرافي ومناخي خاص مرتبط بظاهرة جفاف الصحراء الكبرى ما بين 3000 و 4000 ق.م، والتي تسببت في حدوث قطيعة بين شمال القارة الإفريقية وجنوبها، وزيادة تجزئة شمال إفريقيا إلى مجموعات ثقافية وجغرافية مختلفة. وفي المرحلة ما بين 10 آلاف و 5500 ق.م عرفت منطقة الصحراء الكبرى فترة من وفرة الأمطار أدت ظهور عدد من البحيرات والواحات وتطور الغطاء النباتي المتوسطي في الأراضي المرتفعة. وقد دفع هذا التحسن الملحوظ في الظروف المناخية بأعداد متزايدة من الرعاة الرحل إلى استيطان هذه المناطق ووصلوا حتى إلى المناطق التي ستصبح فيما بعد صحراء ليبيا الجنوبية وغرب مصر. وقد

---

39 - Excoffier L., Pellegrini B, Sanchez-Mazas A, Simon C, Langaney 1987. A Genetics and History of Sub-Saharan Africa. Yearbook of Phys Anthropol, 30 : p 151-194.

استقرت بعض تلك المجموعات قرب المصادر المائية في حين أن بعضها الآخر سيبقون بدوا رحلا. وفيما بعد وخاصة بعد سنة 4000 ق.م ستعرف الصحراء فترة من الجفاف الشديد لتتحول إلى ما يشبه الحالة التي هي عليها اليوم. اختفت كل البحيرات والواحات وتراجع الغطاء النباتي وبقي النيل هو المصدر المائي الوحيد في كل الصحراء الإفريقية. اضطر الناس - سواء كانوا رحلا أو مستقرين - إلى الهجرة إلى مناطق أخرى أكثر قدرة على استيعابهم. وقد حدثت تلك الهجرات في جميع الاتجاهات، فذهب بعضهم إلى حوض بحيرة التشاد، آخرون إلى حوض وادي النيل، في حين فضل آخرون الاتجاه شمالا نحو مناطق شمال إفريقيا المرتفعة والأقل عرضة للجفاف الشديد، هؤلاء سيشكلون إضافة إلى السلالات الأخرى التي استوطنت قبلهم منطقة شمال إفريقيا، الأسلاف المباشرين لسكان هذه المنطقة. وقد ظلت الصحراء تلعب لزمن طويل دور مضخة كبيرة تمتص الناس إلى داخلها في أوقات وفرة الأمطار وتدفع بهم في زمن الجفاف، مما كان يتسبب في هجرات بشرية متعددة كانت تتجه عادة من الشرق نحو الغرب.

وكانت كل مجموعة بشرية تأتي إلى المنطقة حاملة معها لغتها وثقافتها الخاصة التي هي حصيلة لتراكم تاريخي طويل وعمليات تأثير وتأثر - طويلة الأمد وبالغة التعقيد - بالشعوب الأخرى التي صادفتها في طريقها. ولأن تاريخ البشرية هو تاريخ التلاقح الثقافي واللغوي فإن ما كان يحصل في شمال إفريقيا لا يخرج عن هذا الإطار، حيث أدت عمليات الانصهار والاندماج الوراثي بين تلك المجموعات البشرية المختلفة إلى حدوث انصهار واندماج لغوي وثقافي بينها، وبالتالي إلى نشوء لغات متعددة تشترك فيما بينها في بعض الأمور وتختلف في أمور أخرى وذلك بسبب الظروف المختلفة التي تمت بها عملية التلاقح اللغوي تلك والنتائج اللغوية والتاريخية المختلفة التي ترتبت عنها. وحتى بعد مجيء الجفاف النهائي للصحراء الكبرى ظل هذا المشهد الثقافي واللغوي التعددي في منطقة شمال إفريقيا - والذي يعود في أصوله إلى عشرات آلاف السنين - مفتوحا باستمرار على تغيرات جديدة تحملها معها كل هجرة بشرية جديدة نحو المنطقة. وقد برزت تأثيرات جديدة ذات طابع متوسطي منذ مجيء الفينيقيين في القرن الثامن ق.م والرومان في القرن الرابع ق.م والوندال في القرن الثالث

وصولا إلى الهجرات العربية الكبيرة ابتداءً من القرن 11 ميلادي. وقد كانت لتلك الهجرات الخارجية إضافة إلى هجرات أخرى داخلية تأثيرات كبيرة على مستوى الثقافة واللغة والكتابة.

وقد لاحظ المؤرخون منذ القديم وجود تعددية لغوية لدى سكان شمال إفريقيا سواء منهم الناطقين باللغات الأمازيغية أو العربية، وفي هذا السياق يتحدث ابن خلدون (القرن 13 ميلادي) في تاريخه عن «لغة زناتة» المميزة عن غيرها من اللغات الأخرى في المنطقة، والذي يعد أقدم إثبات تاريخي على واقع التعدد ضمن الأسرة اللغوية الأمازيغية، حيث يقول: «وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر...»[40]. وبعد ذلك بعدة قرون لاحظ المؤرخ والرحالة الأوروبي مارمول كربخال (القرن 16 ميلادي) في كتابه عن إفريقيا ملاحظات مهمة عن واقع التعددية اللغوية في منطقة شمال إفريقيا حيث يقول: « ... واللغة التي يتكلمون (سكان شمال إفريقيا) بها حاليا مكونة من العربية والعبرية واللاتينية واليونانية والإفريقية القديمة (الفرع اللغوي الأمازيغي) التي كانوا يستعملونها لدى مجيئهم إلى البلاد (شمال إفريقيا)، لأنه لا أحد يخالف في وجود لغة طبيعية خاصة بإفريقيا مختلفة عن لغة العرب. وتحمل اللغة التي يتكلمون بها الآن ثلاثة أسماء وهي الشلحة (تاشلحيت) وتامازيغت والزناتية، تكاد تدل على نفس الشيء، مع أن البرابرة الأقحاح يختلفون في النطق وفي مدلول كثير من الكلمات. فأقربهم جوارا للعرب وأكثرهم اتصالا بهم يمزجون كلامهم بالعديد من الكلمات العربية... ويمزج الأعراب كلامهم كذلك بعدد كبير من الكلمات الإفريقية (الأمازيغية). ويتكلم أهل غمارة وهوارة الذين يعيشون في جبال الريف لغة عربية فاسدة (العربية الدارجة)، وكذلك جميع سكان مدن البربر المقيمين بين الأطلس الكبير والبحر. لكن سكان مراكش وجميع أقاليم هذه المملكة يتكلمون اللغة الإفريقية الصافية المسماة الشلحة (تاشلحيت) وتامازيغت وهي اسمان قديمان جدا. أما سائر الأفارقة البرابرة القاطنين في الجهة الشرقية المتاخمة لمملكة تونس وطرابلس الغرب إلى صحاري برقة فإنهم يتكلمون جميعهم لغة عربية فاسدة، وكذلك الذين يعيشون بين جبال الأطلس الكبير

40 – ابن خلدون، المصدر نفسه، ج 7 ص 3.

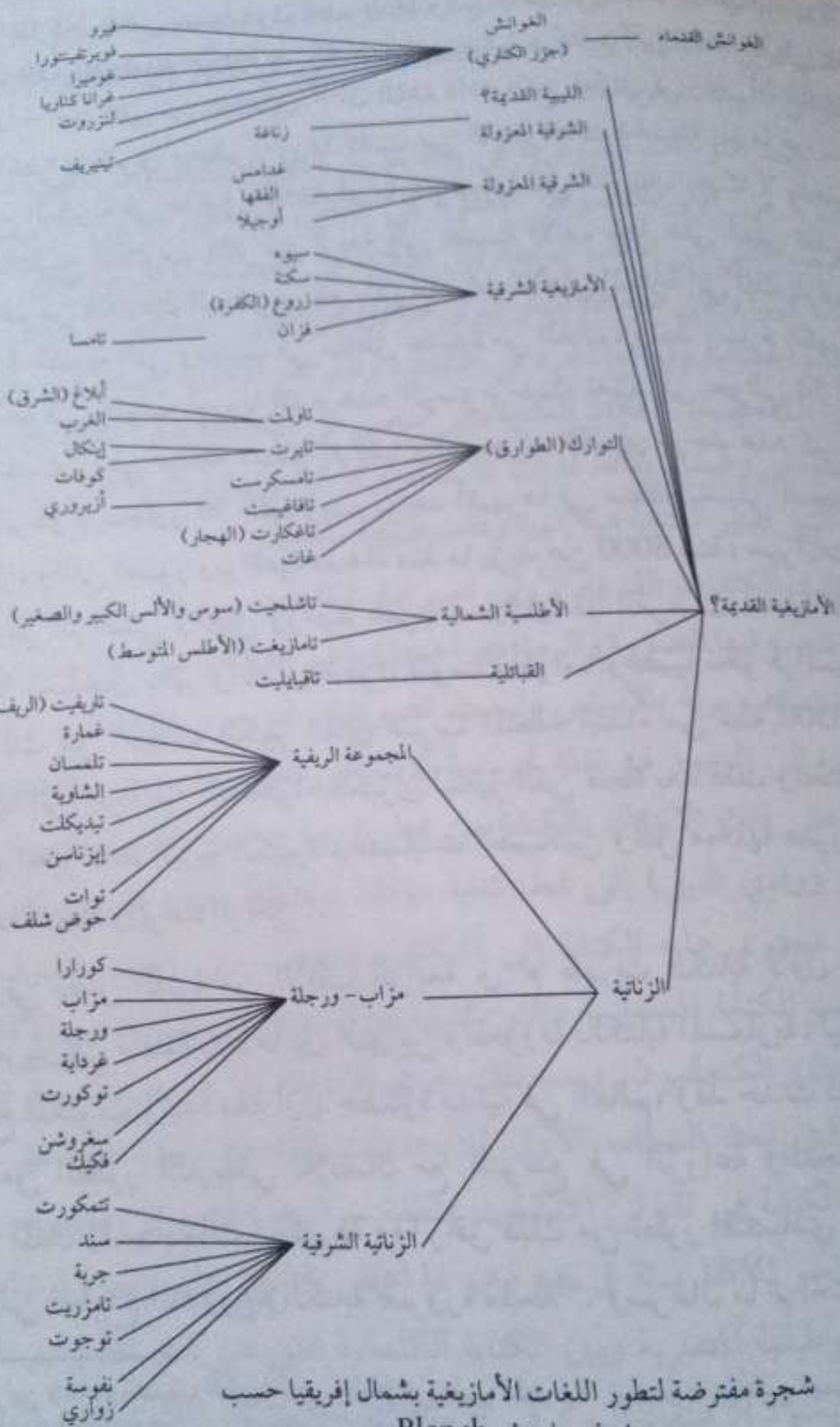
والبحر سواء كانت لهم منازل قارة أم لا، بالإضافة إلى زواوة (منطقة القبائل شمال الجزائر) ولو أن لغتهم الرئيسية هي الزناتية بحيث إن الذين يتكلمون اللغة العربية الفصحى بإفريقيا (شمال إفريقيا) قليلون، لكنهم جميعا (سكان شمال إفريقيا باختلاف لغاتهم) يستعملون في كتابتهم الأصلية العربية (حروف الأبجدية العربية) التي تقرأ وتكتب عادة في كل بلاد البربر ونوميديا وليبيا...»[41].

إذا فعلى امتداد التاريخ – منذ القديم إلى اليوم – عرفت منطقة شمال إفريقيا تعددية لغوية زاد من غناها اندماج المكون اللغوي العربي في هذه التركيبة اللغوية التعددية، ولم يحصل في تاريخ المنطقة أن تحدث أحدهم عن وجود « لغة معيارية موحدة غير قابلة للتقسيم أو التجزيء في كل شمال إفريقيا...» كما تبشرنا بذلك النخب القومية على اختلاف انتماءاتها.

41- مارمول كاربخال، المصدر نفسه. ج 1 ص 115.

اللغة	منطقة الانتشار الجغرافي	الأسرة اللغوية	الفرع اللغوي	البلد
تاشلحيت (السوسية)	سهل سوس وجبال الأطلس الكبير والصغير	الأفروآسيوية	الأمازيغية	المغرب
تمازيغت (الزيانية)	جبال الأطلس المتوسط	الأفروآسيوية	الأمازيغية	المغرب
تاريفيت (الريفية)	جبال الريف	الأفروآسيوية	الأمازيغية	المغرب
تمزابيت (المزابية)	غرداية	الأفروآسيوية	الأمازيغية	الجزائر
تشاويت (الشاوية)	جبال الأوراس	الأفروآسيوية	الأمازيغية	الجزائر
تقبايليت (القبائلية)	منطقة القبائل	الأفروآسيوية	الأمازيغية	الجزائر
جربة	جزيرة جربة	الأفروآسيوية	الأمازيغية	تونس
زواري	شمال غرب ليبيا	الأفروآسيوية	الأمازيغية	ليبيا
سكنة	ليبيا	الأفروآسيوية	الأمازيغية	ليبيا
أوجله	شرق ليبيا	الأفروآسيوية	الأمازيغية	ليبيا
سيوه	واحة سيوة	الأفروآسيوية	الأمازيغية	مصر
الزناغية (الصنهاجية)	جنوب غرب الصحراء الكبرى	الأفروآسيوية	الأمازيغية	موريطانيا
آجر	الصحراء الكبرى	الأفرو آسيوية	الأمازيغية	ليبيا
إيفوراس	الصحراء الكبرى	الأفرو آسيوية	الأمازيغية	مالي
إيوولمدن	الصحراء الكبرى	الأفرو آسيوية	الأمازيغية	النيجر
العربية	بقية مناطق شمال إفريقيا	الأفرو آسيوية	السامية	شمال إفريقيا
الهوسا	الهوسا	الأفرو آسيوية	التشادية	النيجر
السارا	الكابا	النيلو-صحراوية	السارا	التشاد
المائد	بوبو مدار	النيجر- كردوفية	المائد	مالي / سينغال

لائحة لبعض اللغات المنتشرة في منطقة شمال إفريقيا والصحراء الكبرى



شجرة مفترضة لتطور اللغات الأمازيغية بشمال إفريقيا حسب نموذج بلينتش Blench

٧ – الكتابة الأمازيغية ومعضلة الحرف

إذا كان الناس يستطيعون تعلم اللغة وهم صغار في وقت قياسي وبسهولة ملحوظة، فإن تعلم الكتابة مسألة صعبة ومضنية وتحتاج إلى وقت طويل، مما يؤكد – عند كثير من الباحثين – أن اللغة ذات طابع فطري في حين أن الكتابة هي اختراع بشري محض. وربما كانت من الاختراعات الحديثة إذا ما قورنت بتاريخ البشرية في ما قبل الكتابة أو ما يعرف بما قبل التاريخ، حيث لا يتجاوز عمر التاريخ المكتوب أكثر من أربعة إلى خمسة آلاف سنة على أعلى تقدير. وبالرغم من ذلك فإن البعض يرجع بالإرهاصات الأولى للكتابة إلى تلك الرسوم البدائية القديمة التي وجدت في مناطق عديدة من العالم، وتعد رسوم الكهوف المكتشفة في جنوب أوروبا أقدم هذه الرسوم حيث تعود إلى حوالي 34 ألف سنة مضت. وفي منطقة شمال إفريقيا والصحراء الكبرى يوجد عدد كبير من هذه الرسوم يتجاوز 30 ألف رسم يوجد أشهرها في منطقة تاسيلي النجار في الجزائر، والتي تصور وبواقعية مذهلة منذ ما يزيد عن 8000 سنة، حيوانات مثل الجاموس الوحشي والفيل ووحيد القرن – وكلها قد انقرضت محليا الآن – ورجالا مسلحين بالهراوات ويقذفون فئوسا وأقواسا وعصيا نحو فرائسهم... كان ذلك قبل الجفاف الكبير الذي ضرب المنطقة ابتداءً من سنة 3500 ق.م وحوّلها إلى جزء من الصحراء الكبرى ليتغير الفن فجأة بعد ذلك وتختفي معه رسوم الحيوانات البرية الكبيرة وعصابات الصيادين وتحل محلها صور قطعان الماشية المدجنة والرعاة الرحل[42].

وفي نفس الفترة من الألف الرابعة ق.م ظهرت الكتابة لأول مرة عند السومريين في منطقة بلاد ما بين النهرين والمعروفة بالكتابة المسمارية، ليبدأ بذلك التاريخ المكتوب وتبدأ معه أول حضارة مدنية في العالم، وقد حدث ذلك ضمن نسق من التطور التاريخي للإنسان مع التوسع في الزراعة والتجارة وبداية ظهور المدن والمجتمعات الحضرية وما رافق ذلك من تطور اقتصادي واجتماعي جعل من اختراع التدوين والكتابة ضرورة ملحة[43]. وسرعان ما تم اختراع الكتابة

42 – براين فاغان، الصيف الطويل، دور المناخ في تغيير الحضارة. ترجمة : مصطفى فهمي. سلسلة عالم المعرفة العدد 340، يونيو 2007. ص 190.

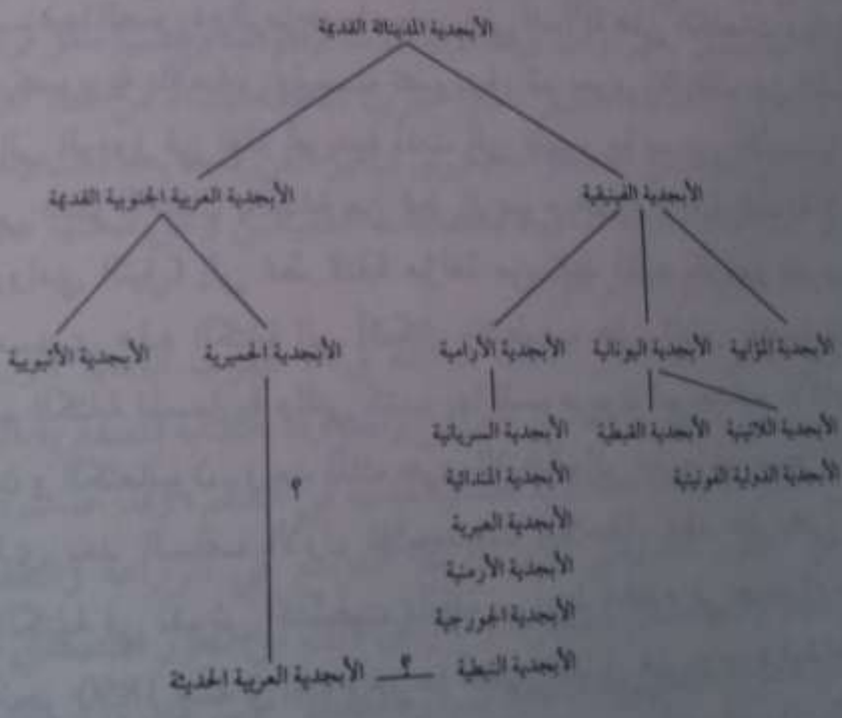
43 - Kramer, S. The Sumerians. 1963.University of Chicago Press, . Chap 5 ,p.78.

الهيروغليفية في حضارة وادي النيل بعد ذلك بفترة قصيرة، وقد شكلت ألفاظها الاثنان والعشرون المعبر عنها برمز واحد أو عدة رموز نوعا من الترتيب الأولي الذي يمكن اعتباره أبعد سلف للأبجديات التي لن تظهر إلى الوجود إلا بعد حوالي ألفي سنة من ذلك.

وتعد اللوحات السومرية في بلاد ما بين النهرين والنصوص الهيروغليفية المصرية من أولى النصوص المكتوبة في العالم، وقد ظهرت إلى الوجود في النصف الثاني من الألف الرابعة قبل الميلاد، في مجتمعات تعرف تطورا تجاريا ومدنيا كبيرا وعلى ضفاف أنهار كبرى مما أدى إلى ظهور حاجات جديدة من قبيل اللوائح الحسابية ولوائح الجرد في التجارة واللوائح الإدارية إضافة إلى علامات الملكية الشخصية... فكان للكتابة دور أساسي في المحافظة على النظام السياسي والاجتماعي وضمان بقائه. لذلك كانت الميثولوجيا في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل تعتبر الكتابة هبة إلهية وذات طبيعة مقدسة.

كانت الكتابات القديمة الأولى تعبر عن الكلمات بواسطة رموز ذات طبيعة متغيرة تلعب فيها الصورة والرمز دورا محوريا في الدلالة على الكلمات وبالتالي فقد كانت تصويرية بالأساس وليست تصويتية. ثم جرى الانتقال من الشكل والصورة إلى الرموز في نقلة تجريدية أدت إلى ظهور ما يسمى بالأبجديات، وساعد على ذلك الانتقال بالكتابة من نمط الرسوم الهيروغليفية القديمة (بلاد الرافدين ووادي النيل) إلى نمط كتابة مؤلفة من نقط أشبه بالرموز الموسيقية ثم ارتفع مستوى هذه الكتابة إلى أشكال وشطوب على الطين بقصبة قاسية عرفت باسم الكتابة المسمارية والتي كتب بها السومريون ثم بعدهم الأكاديون والعموريون و الكنعانيون. وبعد ذلك جرى الانتقال إلى ما يعرف بنمط الكتابة المجمعة الذي يعد السلف الأول للأبجديات اللاحقة. وقد عثر على هذا النمط من الكتابة في نقوش اكتشفت بمنطقة سرابيط الخادم في صحراء سيناء وتعود إلى نحو 1850 سنة ق.م، وهو ما أعطى الدليل على وجود ارتباط بين الكتابة الديموطيقية المصرية وبين الكتابة الكنعانية التي هي آخر تطورات الكتابة المسمارية. ويسود الاعتقاد اليوم في أوساط الباحثين بأن تلك الكتابة السينائية القديمة هي على الأرجح أول أبجدية ظهرت إلى الوجود في العالم. لكن الفضل

في اختراع الأبجدية سيعود إلى شعب آخر هو الشعب الفينيقي الذي كان يمارس التجارة بشكل واسع في البحر الأبيض المتوسط، وقد كان لهذا الاختراع مبرراته الاقتصادية والاجتماعية كأداة فعالة لتسهيل الكتابة وتذليل صعوباته. وتعد مدينة أوغاريت (رأس الشمرة حاليا بالقرب من اللاذقية بسوريا) المدينة الأم لأول أبجدية فينيقية، حيث عثر العالم الفرنسي شيفير أواسط القرن الماضي على رقيم صغير الحجم يحتوي على نحو ثلاثين شكلا مختلفا، اتضح بعد دراستها أنها حروف أبجدية تعود إلى نحو 1500 سنة ق.م. ومنذ ذلك الوقت صار ينظر إلى الفينيقيين على أنهم أول من اخترع الأبجدية في العالم، خصوصا بعد توالي الاكتشافات في المدن الفينيقية الأخرى لأنماط كتابة أبجدية أخرى كتلك التي عثر عليها في مدينة بيبلوس (جبيل حاليا بلبنان) على ضريح الملك أحيرام والتي تعود لسنة 1300 ق.م[44]. ثم انتشرت الأبجدية الفينيقية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط و آسيا بسبب نشاط الفينيقيين الكبير على مستوى التجارة والمبادلات بين الدول والمناطق المختلفة.



شجرة تبين التطور المفترض لأنماط الكتابة الأبجدية في العالم

44 - رفيق المعلوف، كشف أثري طمسته المؤامرة قرونا. مجلة العربي العدد 532 أبريل 2003، ص 16.

وفيما يخص تاريخ الكتابة في منطقة شمال إفريقيا، فقد عرفت المنطقة تنوعا كبيرا في أنماط الكتابة التي جرى تداولها تاريخيا بدءا من الرسوم القديمة على جدران الكهوف وصولا إلى الكتابة الأبجدية باستخدام الحروف المجردة ذات الطبيعة التصويتية وليس التصويرية. وقد ارتبط وجود وتداول بعض أنماط الكتابة على أرض شمال إفريقيا بالوجود الأجنبي بها، كما هو الشأن بالنسبة للأبجدية الفينيقية أو اللاتينية أو العربية والتي ترافق ظهورها في هذه المنطقة مع مجيء شعوب أجنبية إليها واستيطانهم بها، ومن ثم فرض تأثيرهم اللغوي والثقافي على المنطقة وأهلها والذي كان من بين مظاهره المتعددة استخدام هذا النمط من الكتابة أو ذاك أو هذه الأبجدية أو تلك.

وإذا كان حرف الكتابة بالنسبة للغة العربية هو محط إجماع سواء في شمال إفريقيا أو في المشرق العربي، فإن موضوع «الحرف» أو أبجدية الكتابة له حساسية خاصة فيما يتعلق بكتابة اللغات الأمازيغية، حيث يثير هذا الموضوع عادة جدلا كبيرا بين أنصار مواقف مختلفة وفي بعض الأحيان متناقضة حول أي نمط من الحروف هو الأولى بالاستخدام من أجل كتابة اللغات الأمازيغية: هل هو الحرف العربي الذي يمثل في نظر أنصاره حرف التراث الأمازيغي (ما بعد الإسلامي خاصة) ما دام أن أغلب التراث الأمازيغي القديم من الكتب والمخطوطات والمؤلفات والتي تعد بالآلاف (يوجد جزء مهم منها في المكتبات والمدارس العتيقة في منطقة سوس جنوب المغرب) مكتوب بهذا الحرف والذي جرى تبنيه بشكل واسع في شمال إفريقيا عقب دخول الأمازيغ إلى الإسلام... أم هو الحرف اللاتيني (في نسخته الفرنسية أساسا) والذي يرى فيه البعض مدخلا لتطوير اللغات الأمازيغية وإدخالها في ركب الحداثة والتقدم!!! أم هو حرف «تيفيناغ» المستخدم من طرف بعض مجموعات التوارك (الطوارق) والذي يرى فيه الكثيرون الحرف الوحيد الجدير بالاستخدام في كتابة اللغات الأمازيغية لأنه الحرف الوحيد «الأصلي» في شمال إفريقيا، باعتباره جاء نتيجة تطور متواصل للكتابة الليبية القديمة التي كانت من بين أولى الأبجديات المستخدمة في شمال إفريقيا والتي عرفت انتشارا واسعا بالمنطقة.

وبما أن قضية «الأصل» و«الأسبقية التاريخية» مهمة جدا في موضوع الهوية في شمال إفريقيا، ولها اعتباراتها الوازنة والمؤثرة للغاية (وهي اعتبارات عاطفية

الكتابة بالنسبة للغات الأمازيغية وإلى بالأساس) ليس فقط في مسألة اختيار حرف الكتابة بالنسبة للغات الأمازيغية وإلى تتعداها إلى قضايا أخرى متعلقة بأصل اللغة ذاتها وبمواضيع أخرى عن الجذور البشرية والثقافية والتاريخية لإنسان شمال إفريقيا... فإن أصل الكتابة الليبية القديمة نفسها لم يسلم من الصراع والجدل حوله، ما بين قائل بالأصل المحلي لتلك الكتابة وقائل بأنها اقتباس شمال-إفريقي من الأبجدية الفينيقية والتي تعد بقية الأبجديات المنتشرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط اقتباسات متأخرة عنها. ويتخذ هذا الجدال في الغالب طابعا علميا مرتبطا بالنقاش حول التاريخ القديم لمنطقة شمال إفريقيا، لكن المحرك الأهم والخفي لهذا النقاش هو في عمقه أيديولوجي فكري مرتبط بطريقة النظر إلى العلاقة بين طرفي ثنائية «عربي / أمازيغي» «الشهيرة في شمال إفريقيا، ما بين أنصار «الانفصال» ودعاة «الاتصال» بينهما. وقبل التطرق بتفصيل لهذه المواقف لا بد أولا من عرض موضوع أصل الكتابة الليبية القديمة (ومن خلالها حروف تيفيناغ) ومناقشة الأبعاد التاريخية لموضوع الكتابة في شمال إفريقيا، وهل هناك حقا نمط أمازيغي واحد في الكتابة؟ أم أن الموضوع خاضع لواقع التعددية في الكتابة على ضوء التعددية البشرية كما ناقشناها في الفصل السابق...؟

تنقسم المواقف في قضية أصل الكتابة الليبية القديمة على أساس ثلاث مواقف يمكن تلخيصها في الآتي: كون هذه الحروف اقتبست من الحروف الفينيقية، أو أنها اختراع محلي، أو أنها اقتبست من حروف أخرى قديمة جدا لا نعرفها إلى اليوم.

وبالرغم من كل المجهودات المتواصلة منذ القرن التاسع عشر لفك رموز الكتابة الليبية القديمة ، وبالضبط منذ سنة 1842 حيث عثر لأول مرة على نقوش تحمل هذا النوع من الكتابة، إلا أن هذه المعضلة ما تزال مطروحة إلى الآن. وقد جرى فك رموز – ومن ثم قراءة – عدد قليل فقط من النصوص الليبية القديمة، وبالأساس تلك الرموز مزدوجة الكتابة وهو ما ساهم في فك رموز الكتابة المعروفة بالليبية الشرقية. أما بالنسبة لباقي الكتابات الأخرى – وهي جنائزية بالأساس وترتبط بالمقابر في معظمها – فإن قراءتها ما تزال مستحيلة إلى اليوم. فبالرغم من العثور على نقوش باللغتين البونية (يطلق اسم بوني Punic على

الثقافة الفينيقية في شمال إفريقيا خاصة في نسختها القرطاجية) والليبية في هيكل دكّة (تونس) تعود لسنة 139 ق.م (السنة العاشرة من حكم الملك النوميدي ميبسا)، وهو ما سمح بفك رموز الأبجدية الليبية الشرقية، وبالرغم كذلك من العثور على نحو 1200 نقش في الأراضي التابعة لملكة نوميديا الأمازيغية القديمة، إضافة إلى كل تلك الرسوم والنقوش على الصخور المنتشرة على طول الصحراء الكبرى، رغم كل ذلك فإن اللغة الليبية القديمة ما تزال مجهولة لحد الآن ومستعصية على الفهم، حتى مع معرفتنا الجزئية بقيمة بعض تلك الرموز! وإلى اليوم الذي ينتهي فيه علماء الأنتروبولوجيا اللسانية من العثور على اللغات الميتة في المنطقة وإعادة ترتيب تاريخها الزمني وصولا إلى اللغات القديمة لما قبل التاريخ، فإن الليبية القديمة تبقى مستعصية على القراءة والفهم[45].

ويوجد اليوم حوالي أزيد من 1300 نقش مكتوب بالحروف الليبية القديمة في منطقة شمال غرب إفريقيا. ويطلق لفظ «الليبي» على مجموع الآثار التاريخية الأمازيغية التي تعود إلى الفترة السابقة عن الحقبة الإسلامية. ويوجد بجانب ذلك عدد كبير من النقوش المنتشرة في منطقة الصحراء لكنها نقوش حديثة العهد تحمل طابعا مختلفا، ويجري عموما إدراجها ضمن الكتابة الليبية كأحد فروعها الحديثة. هذه النقوش المكتوبة بحروف تيفيناغ ما يزال بعضها مستعملا إلى اليوم عند التوارك (الطوارق) وتنتشر في المجال الجغرافي الممتد على طول منطقة شمال غرب إفريقيا وجزء من الصحراء الكبرى من جزر الكناري إلى ليبيا ومن البحر المتوسط إلى حدود النيجر. وتنتشر تلك النقوش بالأساس في المغرب والجزائر وتونس وليبيا، ويتغير انتشارها بتغير المناطق الجغرافية والمراحل التاريخية المختلفة. لكن المنطقة التي تعرف أكبر انتشار لها هي المملكة القديمة للملوك النوميديين والتي تقع حاليا في الحدود الشمالية لتونس والجزائر، حيث عثر على أكبر عدد من تلك النقوش، ومن هنا جاءت التسمية القديمة لها بالكتابة النوميدية. وفي تلك المنطقة أيضا وبالضبط مدينة دكّة القديمة حيث عثر تلك النقوش ذات الكتابة المزدوجة : ليبية – بونية والتي سمحت بترجمة بعض النصوص الرسمية التي عثر عليها هناك، وقد كتبت بنفس طريقة الكتابة

45 - Camps G. 1996, Ecritures - Ecriture libyque. Encyclopédie berbère XVII, p.256.

الفينيقية : أفقيا ومن اليمين إلى اليسار . كما أن تاريخها (أي سنة 139 ق.م) يعد أقدم تاريخ معروف للكتابة الليبية القديمة، ما يحصر ظهورها في أقصى الحدود بين القرنين الثاني والثالث ق.م. ومما يزيد أيضا من صعوبة فك شيفرة الكتابة الليبية القديمة هو كونها كانت تكتب بدون حروف صائتة أو حركات ودون وجود فواصل بين الكلمات. وهذا العائق المرتبط بطريقة الكتابة يشكل حاجزا كبيرا أمام إمكانية فهم تلك الرموز، ومن الأمثلة التي تعطى في هذا المجال عن الاحتمالات الممكنة لقراءة كتابة ما دون وجود حروف صائتة فيها أو حركات ودون وجود فواصل بين الكلمات، فكتابة من قبيل «ع - ن» يمكن أن تقرأ على أنها «عين» أو «عون» أو «عناء» أو «أعان» أو «يعني» ... أو غيرها من الاحتمالات العديدة الممكنة، هذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار التحولات الكبيرة التي عرفتها هذه الكتابة عبر الزمن سواء من خلال ظاهرة القلب بين الحروف أو اختفاء كلمات معينة وانقلاب معاني بعض الكلمات الأخرى... وهذا المثال البسيط المكون من حرفين فقط لا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال مع الصعوبة الحقيقية حينما يتعلق الأمر بتسلسل كبير من الجمل المكونة من عشرات الحروف المترابطة بدون وجود فواصل أو نقط أو حروف صائتة لتبقى معاني تلك الجمل المستعصية على القراءة في حكم المجهول.

وبالرغم من التقدم الكبير الذي عرفته الأبحاث في السنوات الأخيرة، تظل بعض المظاهر المرتبطة بالكتابة الليبية القديمة غير مفهومة لحد الآن، وبالخصوص في ما يخص موضوع أصولها وذلك في غياب عدد كاف من الشواهد الأثرية ذات التاريخ المضبوط. ولا يقتصر موضوع الخلاف على أصول هذه الكتابة فقط وإنما يتعداه أيضا إلى تاريخ ظهورها، فهذه النقوش هي في معظمها ذات وظيفة جنائزية وترتبط بالمقابر أساسا ولا تحمل أية إشارات زمنية. وهناك بعض النصوص المكتوبة والتي وجدت برفقة نقوش صخرية ترجع إلى ما قبل التاريخ، ما يجعل من مسألة التأريخ لها أمرا صعبا للغاية.

عادة ما ينسب اختراع الأبجدية إلى الفينيقيين في الفترة الممتدة بين 1300 و1200 ق.م، لكننا نعلم اليوم أن مبدأ الحروف الأبجدية قد نشأ قبل ذلك بمدة في جنوب شبه الجزيرة العربية وقبله في منطقة سيناء مع ظهور الأبجدية السينائية القديمة. وابتداءً من تلك الفترة انتشرت الأبجدية الفينيقية في منطقة

حوض البحر الأبيض المتوسط و آسيا بسبب نشاط الفينيقيين الكبير على مستوى التجارة والمبادلات. وامتد التأثير الفينيقي أيضا إلى منطقة شمال إفريقيا، مما قد يعني عند كثير من الباحثين – وربما أغلبهم – أن الحروف الليبية القديمة قد اقتبست بدورها من الأبجدية الفينيقية، شأنها كبقية الأبجديات الأخرى المتداولة في حوض البحر الأبيض المتوسط ولا يعقل أن تكون الاستثناء التاريخي الوحيد عن هذه القاعدة. وهذه الفرضية تبدو على المستوى التاريخي متماسكة ومقنعة، خاصة إذا ما علمنا بأن تلك الحروف الليبية متأخرة زمنيا عن تاريخ بناء أولى المستعمرات الفينيقية في شمال إفريقيا بدءًا من سنة 1200 ق.م، وحتى عن تاريخ إنشاء قرطاجة سنة 814 ق.م. ويضاف إلى ذلك أن الكتابة الليبية القديمة هي كتابة «أبجدية» بمعنى أنها تتبنى الترتيب الأبجدي للحروف على الطريقة الفينيقية (أ – ب – ج – د ...) في ترتيب الحروف[46]. و الأبجدية الليبية القديمة تكتب على شكل صوامت بدون حروف صائتة، ورغم أنه يغلب عليها الاتجاه من الأسفل إلى الأعلى فإنها تكتب في جميع الاتجاهات من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل... وفي بعض الأحيان تكون الكتابة عشوائية دون اتجاه محدد.

وأدت الاكتشافات الأثرية المتتالية في شمال إفريقيا إلى تعزيز هذا الطرح من خلال العثور على أكبر عدد من النقوش المكتوبة بالليبية القديمة في أراضي مملكة نوميديا القديمة وهذه المنطقة معروفة بقربها الكبير من قرطاجة عاصمة الفينيقيين في شمال إفريقيا، وبالتالي بتأثرها الكبير باللغة والثقافة البونية، وهو ما يعد في نظر المدافعين عن نظرية الأصل الفينيقي لهذه الكتابة بمثابة إثبات آخر على صحة ما يذهبون إليه خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه في مملكة نوميديا وبالأخص في عاصمتها قرطة تم العثور على أكبر عدد من اللوحات الحجرية التي تحمل نقوشا بونية–فينيقية في كل منطقة شمال إفريقيا عدا قرطاجة نفسها بالطبع. وتتميز الكتابة الليبية القديمة بوجود تباين ملحوظ في مجال انتشارها، فأغلب تلك الكتابات عثر عليها في المناطق التي عرفت تأثير الحضارات الفينيقية

46 - محمد المختار العرباوي، الكتابة البربرية : اللوبية–التيفيناغ ما حقيقتها؟ ضمن كتاب الأمازيغية في الهوية والثقافة. منشورات منتدى المواطنة، الدار البيضاء 2003، ص 125.

والليبية، أي في المناطق الشمالية لكل من تونس والجزائر والمغرب. ويوجد عدم توازن كبير بين هذه المناطق وبقية أرجاء شمال إفريقيا الأخرى، ما يعد في نظر الكثيرين دليلا آخر دامغا على الأصل الفينيقي لهذه الكتابة.

ولو أضفنا إلى ذلك أن الكتابة الليبية القديمة ظهرت في وسط طبيعي يتميز عموما بكونه عبارة عن أدغال جافة وحتى صحراوية، وسط يغلب عليه طابع القحط والجفاف ولا توجد فيه متطلبات اقتصادية واجتماعية كبيرة من النوع الذي عرفته منطقة الشرق الأدنى القديم ذات الأنهار العظيمة كالنيل ودجلة والفرات من أجل أن يكون اختراع أبجدية محلية ضرورة اقتصادية واجتماعية ملحة. ومن جهة أخرى فقد كانت المجتمعات الأمازيغية في شمال إفريقيا – وحتى وقت قريب – مجتمعات ذات تقاليد شفهية بالأساس وذاكرة ثقافية غير مكتوبة تعتمد على الكلام والحكايات كمصدرين رئيسين للبقاء والاستمرار. وهذا طبعا لا ينقص من قيمة الكتابات الليبية القديمة ولكنه يشرح ضعف انتشارها في هذه المجتمعات وبقاء الثقافة الشفهية صاحبة الامتياز الكبير على امتداد تاريخها.

في الصحراء الوسطى نستطيع أن نلاحظ إلى اليوم، عدم وجود أية كتابة مرافقة للرسوم التي خلفها الليبيون الصحراويون أواخر العصر الحجري الحديث، وظهرت الحروف الأولى بعد ذلك مباشرة مع المجموعات الجرمانتية Germantes. وقد ظهر هؤلاء على مسرح الأحداث في منطقة شمال إفريقيا في الفترة الممتدة ما بين سنة 1500 ق.م و سنة 1000 ق.م. وفي هذه الفترة الزمنية التي تقل مدتها عن خمس مائة سنة حيث يجب البحث عن أصول الكتابة الليبية القديمة، أي في النصف الثاني من الألفية الثانية ق.م.

ويوجد اليوم عدد كبير من المعطيات الأركيولوجية والتاريخية التي تؤكد على أن الأبجديتين الفينيقية والليبية ظهرتا في نفس المرحلة التاريخية تقريبا. فالمرحلة التاريخية التي ظهرت فيها النقوش على الصخور في منطقة تاسيلي لم تكن هي فقط المرحلة التاريخية التي انتشرت فيها الأبجدية الفينيقية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، بل أيضا كانت هي المرحلة التي عرفت واحدا من أهم الأحداث التاريخية التي ستقلب واقع المنطقة بأكملها رأسا على عقب... حدث ذلك بسبب الهجرات الشهيرة لشعب غامض قادم – على الأرجح – من منطقة

البلقان، رغم أنه ولحد الآن لا أحد يعلم يقينا من يكونون ولا من أين جاءوا: إنهم «شعب البحر» الغامض، وقد كان لهؤلاء تأثير مهم على الليبيين الشرقيين حيث دفعوا بهم إلى الاحتكاك بعدد من شعوب البحر المتوسط الأخرى، وتحالفوا معهم ضد الفرعون المصري منبتاح وبعده ضد رمسيس الثالث. كان لهجرة «شعب البحر الغامض» آثار مدمرة على جميع المناطق التي مروا منها بدءًا من الحضارة الميسينية في اليونان مرورا بالإمبراطورية الحيثية في الأناضول، والحضارة الفينيقية في الشام وانتهاءً بمنطقة وادي النيل التي تحالفوا مع الليبيين الشرقيين في الهجوم والإغارة عليها. وقد كانت لتحركاتهم تلك نتائج بالغة الأهمية في ربط الاتصال بين مناطق وشعوب وثقافات مختلفة و بالتالي إلى حصول تبادل ثقافي كبير واقتباس لغوي مختلف في فترة زمنية قصيرة نسبيا، وهناك من يطرح بالنتيجة حصول تبادل واسع على مستوى الأبجدية والكتابة أيضا في مجموع المناطق التي مر منها هؤلاء.

إذاً فكل الأدلة التاريخية والأركيولوجية تشير إلى تزامن هذه الأحداث: ظهور الأبجدية الفينيقية، هجرة شعب البحر وظهور الأبجدية الليبية القديمة، في نفس المرحلة التاريخية تقريبا عند نهاية الألفية الثانية ق.م، ما بين 1500 و1000 سنة ق.م. وهي نفس المرحلة التاريخية التي انتهى فيها العصر الحجري الحديث في منطقة شمال إفريقيا حيث جرى ترويض الحصان وظهرت العربة وصناعة المعادن بالإضافة إلى ظهور الكتابة بعد ذلك ببضعة قرون. وقد حدث ذلك في وقت تاريخي وجيز نسبيا مقارنة بالفترة الطويلة التي قضاها العصر الحجري الحديث في المنطقة. وليس من قبيل الصدفة أن تظهر كل تلك التحولات في نفس الوقت الذي بدأت فيه التأثيرات المتوسطية الشرقية في التغلغل في شمال إفريقيا والتي كان للعامل الفينيقي فيها دور كبير وحاسم في ربط المنطقة بباقي الأرجاء المتوسطية الأخرى.

وبناء على ذلك وحتى تكتمل الصورة، يرى عدد من الباحثين أن كتابة «تيفيناغ» الحديثة والتي تستخدمها مجموعات التوارك (الطوارق) في الصحراء الكبرى هي نتيجة لتطور هذا الاقتباس التاريخي من الأبجدية الفينيقية بدءا من الكتابة الليبية القديمة، ويستدلون على ذلك بكون الاسم نفسه (تيفيناغ) يوحي بكلمة فينيق، خاصة إذا ما علمنا أن هذا الاسم هو صيغة جمع مفردها «أفنيق»

وأن الهمزة في بداية الكلمة هي من الزوائد التي تضاف إلى الكلمات في اللغات الأمازيغية للدلالة على المذكر (في مقابل التاء التي تضاف هي الأخرى إلى أول الكلمة للدلالة على المؤنث وتكون مفتوحة في المفرد ومكسورة في الجمع)، تصبح الكلمة في أصلها « فنيق » وهي متطابقة مع اسم الشعب الذي استوطن أرجاء من شمال إفريقيا وأسس فيها حضارة (الحضارة القرطاجية) كان لها تأثير واسع في مجموع أرجاء شمال إفريقيا"[47]. ولو أضفنا إلى ذلك أن ستة من أصل اثنا عشر حرفا من هذه الحروف لها نفس الشكل ذاته الذي للحروف الفينيقية أي بمعدل النصف، وأن الباحث الفرنسي كامبس Camps مثلا يلاحظ أن الحرف «X» الموجود على نقش عجلة بروكلين هو حرف فينيقي بالطبع (إلا أنه أيضا حرف ليبي)، فإن موضوع العلاقة بين تلك الكتابة والكتابة الفينيقية هو من الأمور التاريخية التي تملك من الأدلة ما يجعل من الصعب جدا عدم أخذها بعين الاعتبار.

لكن السؤال الأهم والمحير بالفعل هو أنه إذا ما قبلنا بأن الكتابة الليبية جاءت نتيجة تأثير الحضارات المتوسطية (الفينيقية بالخصوص مع دور محتمل لشعب البحر الغامض) فلماذا ظهرت هذه الكتابة لأول مرة في منطقة الصحراء الوسطى عند الجرمانتيين وليس عند الليبيين الموجودين على سواحل المتوسط ؟ ربما يرجع السبب في ذلك إلى قلة الأبحاث الأثرية المنجزة في هذه المناطق، وربما تحمل الأبحاث الأثرية المستقبلية جوابا شافيا لهذا السؤال[48].

وتجدر الإشارة هنا إلى هناك طرحا آخر يصب في نفس الموقف الأول من ادعاء أصول مشرقية للكتابة الليبية القديمة، لكنه بالمقابل يدعي أنها ليست اشتقاقا من الكتابة الفينيقية وإنما من الكتابة التامودية Tamodite والكتابة الحَمَيْرية القديمة في جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن خاصة). وفي هذا الصدد يلاحظ الباحث محمد شفيق أن: "بين حروف تيفيناغ القديمة منها (الكتابة الليبية القديمة) والتواركَية (الحديثة) وبين حروف الحميريين شبه ملحوظ في الأشكال، لكنها لا تتقابل في

47 – عز الدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب. دار الشروق، الأردن، الطبعة الأولى 1999 ص 69.

48 - Siraj Ahmed. Aux origines de l'écriture au Maghreb. L'ESSENTIEL, février 2002.

تأدية الأصوات إلا في حالتين اثنتين بتجاوز في التدقيق»[49]. ومن المعروف تاريخيا أن الطريق التجارية الرابطة بين جنوب شبه الجزيرة العربية واليمن مع شمال إفريقيا عبر منطقة القرن الإفريقي ومصر كانت معروفة ومستخدمة منذ زمن طويل كما تورد ذلك المصادر التاريخية المصرية القديمة من خلال مدونات الأسرة الحاكمة الإحدى عشر منذ حوالي 2160 ق.م. ولو صحت هذه النظرية فإن الكتابة الليبية القديمة قد جاءت إلى إفريقيا ليس من خلال البحر الأبيض المتوسط وإنما من منطقة الصحراء عبر مصر من خلال التجار اليمنيين القدماء، وهو ما يمكن أن يفسر لماذا ظهرت لأول مرة في الصحراء عند الجرمانتيين وليس في المناطق الساحلية القريبة من مجال تأثير الفينيقيين. لكن هذه النظرية تبقى مجرد تخمينات في حاجة إلى إثباتات أركيولوجية وأبحاث ميدانية لقبولها أو نفيها.

وفي مقابل المدافعين عن الأصل الفينيقي للكتابة الليبية القديمة يوجد عدد من الباحثين ممن يرون أن أصل تلك الكتابة هو محلي وأنها جاءت وفق سياق تطور محلي للرسوم القديمة على الجدران والتي تعود إلى العصر الحجري الحديث. ويدافع هؤلاء الباحثون عن أقدمية الحرف الليبي على التاريخ الذي يربط به عادة (القرن 5 ق.م) وعن أصله المحلي واستقلاليته عن الحرف الفينيقي أو تنويعاته البونية والتي طالما ربط بها.

ويقدم المدافعون عن النظرية القائلة بأن أصل الأبجدية الليبية – كلها أو بعضها حسب وجهة نظر كل باحث – هو اختراع محلي وليس اقتباسا من الفينيقية مجموعة من الأدلة على ما يذهبون إليه. ففي سنة 1959 صرح الباحث الفرنسي فيفريي Février بأن الكتابة الليبية هي في حقيقة الأمر خليط ما بين حروف مقتبسة من الفينيقية وأخرى مأخوذة من « ذاكرة محلية موغلة في القدم تتجلى في الأشكال المميزة للوشم القبلي، في علامات الملكية للأرض، وفي الرموز والرسوم المنقوشة على الصخور والمنتشرة في المنطقة...»[50]. وحسب الباحث الفرنسي الآخر غالاند Galand فإنه من المحتمل جدا وجود نوع من الكتابة الليبية البدائية والتي مارست عليها الكتابة الفينيقية تأثيرها[51]. أما كامبس Camps

49– محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين. دار الكلام الرباط، 1989، ص 20.
50 -Février J.G. 1959. Histoire de l'écriture : Payot , Paris , p : 325.
51-Galand L. 1989. Les alphabets libyques. Antiquités Africaines, N° 25, p. 69 - 81.

فيذهب إلى أن هذه الكتابة المحلية قد اقتبست حروفا جديدة من الفينيقية وقامت بتعديل حروف أخرى حتى تكون متلائمة مع نمطها الخاص، وذلك مع توفرها على نماذج موغلة في القدم تميزها عن الكتابة الفينيقية مما يجعل معالجة موضوع أصل الكتابة الليبية مسألة في غاية الصعوبة[52]. وبالنسبة للباحث الجزائري سالم شاكر فإنه يلاحظ أن الكتابة الليبية ظهرت في كل مكان من منطقة شمال إفريقيا بشكلها الهندسي المميز دون أن يكون ذلك مسبوقا بمرحلة وسيطة ضرورية كفترة انتقالية أو تطورية للكتابة الليبية من الأصل الفينيقي أو البوني، كما هو الحال بالنسبة للأبجدية الفينيقية واليونانية القديمة أو المتوالية المعروفة للأبجدية الآرامية - النبطية - العربية[53].

وينطلق هؤلاء من نفس النقطة التي تقف عندها نظرية الأصل الفينيقي للكتابة الليبية القديمة أي إشكالية الموقع الجغرافي لبداية ظهورها حيث يمكن القول بأن أقدم الشواهد على الكتابة الليبية القديمة هي تلك النقوش الموجودة في منطقة تاسيلي (الجزائر) والتي يرجع تاريخها المفترض إلى ما بين 1300 و1200 ق.م. وهذه النقوش موجودة في منطقة الصحراء الكبرى البعيدة نسبيا عن المجال الجغرافي للفينيقيين وللقرطاجيين. وهي نفس الوضعية بالنسبة لأقدم نقش معروف في منطقة شمال إفريقيا والذي عثر عليه في منطقة عزيب ن إكيس في الأطلس الكبير بالمغرب. تقع هذه المنطقة في الغرب بعيدا عن مجال التأثير البوني، ووجود هذه الكتابة في منطقة قارية بعيدة عن أي اتصال بالفينيقيين دليل على عدم تأثير الأبجدية الفينيقية فيها[54]. وقد عثر على هذا النقش سنة 1959، ويتكون من حوالي 15 أو 16 حرفا مصفوفة بشكل عمودي، ويبدو أن طريقة نقشها وشكلها وأسلوب الكتابة هي مطابقة لنقوش أخرى ترجع لعصر البرونز وبالتالي يعتقد أنها تعود إلى القرن الرابع أو الخامس ق.م على أقل تقدير.

---

52 -Camps G. 1980. Berbères aux marges de l'Histoire ; éd. Des Hespérides, Paris, p : 202.

53 -Chaker Salem. 2000, Hachi Slimane. A propos de l'origine et de l'âge de l'écriture libyco – berbère. Paris/Louvain, Editions Peeters, p.95-111.

54 -Hachid Malika. 2001. Les Premiers Berbères : Entre Méditerranée, Tassili et Nil. Ina-Yas. Edisud .

ويرفض أصحاب نظرية الأصل المحلي للكتابة الليبية القديمة القبول بشكل كامل بذلك الطرح المبني على التحليل التاريخي والذي تقوم عليه نظرية الأصل الفينيقي لهذه الكتابة رغم أنهم لا يلغونه بشكل كامل، وفي المقابل يقدمون فرضية أخرى تقوم على أساس مقارنة شكل الحروف الليبية والفينيقية، حيث ذهب الباحث الفرنسي ستيفان كزيل S. Gsell إلى أن هناك شبها ملحوظا – لا يمكن إنكاره – بين عدة رموز فينيقية وليبية، إلا أن الحروف الفينيقية البونية يغلب عليها طابع الانحناء والتقوّس وتحمل مظهرا أفقيا، في حين أن الحروف الليبية تحمل طابعا هندسيا وزواياها أكثر حدة كما أنها تقدم عادة بشكل عموديا خاصة القديمة منها. وعلى هذا الأساس الهندسي ستقوم النظرية القائلة بأن الحروف الليبية القديمة جاءت نتيجة تطور طويل الأمد لرسوم الكهوف القديمة ورسومات العصر الحجري الحديث. وستجد هذه النظرية لها دعما جديدا في الأبحاث الأثرية التي أجريت في منطقة تيبسا (شمال شرق الجزائر)، فقد عثر هناك على رموز هندسية تحاكي بالضبط تلك التي كانت تستخدمها الثقافة القفصية القديمة في تزيين بيض النعام، وهي العادة التي عرف بها القفصيون الذين كانوا يقومون بتزيين الأشياء الثمينة بأشكال هندسية مميزة[55].

وفي هذا السياق يتساءل كل من الباحثين الجزائريين سالم شاكر وسليمان حاشي: «ألا يجب بالأحرى الحديث عن تطور محلي للكتابة الليبية انطلاقا من ممارسات غير تدوينية أو في كل الأحوال غير أبجدية ؟...»[56] في إشارة إلى عادات التزيين لدى القفصيين. هذا الموقف تضاف إليه مواقف أخرى عديدة تدعوا إلى أصل محلي للكتابة الليبية بدأ مع النقوش الهندسية القديمة في منطقة الأطلس الصحراوي. وتلخص الباحثة الجزائرية مليكة حشيد وجهة النظر هذه بالقول: «عرفت هذه الرموز مرحلة من التقلص المستمر والميل نحو التنميط الهندسي ودخلت المرحلة الليبية – الأمازيغية بالتدريج في مسار التجريد. وبغض النظر عن الحجم وشكل الانحناء فقد ظهر هناك ميل عام نحو الأشكال الهندسية المختلفة: المثلث، المعين، المربع، المستطيل، الخط المتقطع، الروافد،

55 – المصدر نفسه.

56 -Chaker Salem. 2000 Hachi Slimane. A propos de l'origine et de l'âge de l'écriture libyco – berbère. Paris/Louvain, Editions Peeters, . p. 95-111.

المسننات، الصلبان... وهي نفس الأشكال الهندسية التي نجدها اليوم في الفنون الشعبية... ومع عصور ما قبل التاريخ وبداية التاريخ اتجه الرسم التصويري نحو الاختفاء، وتدريجيا حل محله الأسلوب الهندسي والذي صار منتشرا كثيرا في النقوش الصخرية. وفي بداية هذا التسلسل التاريخي ما بين نهاية فترة العربات الصحراوية وبداية العصر الليبي- الأمازيغي (الألفيتين الثانية والأولى ق.م) لا يعلم أحد من أين ولا كيف ظهرت الحروف الأولى للكتابة ؟ ... وباختصار نعتقد أنه يجب البحث عن البداية الأولى عند السلالة القفصية في شمال إفريقيا منذ 10 آلاف سنة وعند بدو الصحراء الأوائل منذ 7 آلاف سنة مضت، حيث توجد الجذور الأولى لهذا المخزون من الرموز المختلفة، وبعد ذلك عند الليبيين الشرقيين و الصحراويين في بداية التاريخ. ففي هذا القالب توجد بعض الرموز ذات الأبعاد الدينية والاجتماعية وغيرها... والتي ربما تحولت بالتدريج إلى نوع من اللغة الرمزية الأولية. ولكن كان لا بد من انتظار سلالة الجرمانتيين ليتم تحويل هذا النظام الأولي إلى أشكال كتابة بدائية أعطت في النهاية حروف الكتابة الأولى، ولكن لن نكون مندهشين إذا ما اكتشفنا يوما ما أن هذه الحروف كانت من اختراع الليبيين الصحراويين أنفسهم وليس غيرهم...»[57].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن باحثين آخرين يؤاخذون على وجهة النظر تلك أنها تغفل معطيات مهمة تتجلى في كون الكتابة في شمال إفريقيا لم تعرف مرحلة ما قبل الأبجدية كما هو الحال بالنسبة إلى الصيرورة التقليدية لتطور أنظمة الكتابة في مناطق أخرى من العالم، حيث جرى التدرج من أنظمة تعتمد على الرسم والصورة في إيصال المعاني وصولا إلى الرموز المجردة التي تعبر عن أجزاء صوتية (الحروف) يجري وصلها لتكوين الكلمات والجمل، وهو ما لم يعرفه تاريخ الكتابة في المنطقة[58].

أما بخصوص الإشكال الذي يفرضه اسم «تيفيناغ» وعلاقته بالفينيقيين فإن سالم شاكر يقترح معاني أخرى لكلمة تيفيناغ، وهو يشير إلى أنه في منطقة أدرار نيفوغاس يوجد فعل متداول هو «إيفني» والذي يعني كتب. كما أنه يقول

57 -Hachid Malika. 2000 Les Premiers Berbères. Entre Méditerranée, Tassili et Nil. Ina-Yas. Edisud p.317.

58- Siraj Ahmed. Aux origines de l'écriture au Maghreb. L'ESSENTIEL, février 2002.

بأن الجذر اللغوي «فنق» موجود في كلمة متداولة في منطقة القبايل (الجزائر) تطلق على نوع من الصناديق المنزلية وهي كلمة «أفنيك» علما أن هذا النوع من الصناديق كان يستخدم قديما في العصر الليبي والبوني القرطاجي كتوابيت توضع فيها النعوش. ويتساءل سالم شاكر : « ما إذا كان التأثير الفينيقي المفترض هو قبل كل شيء، تأثير على مستوى طقوس الدفن ؟ وما إذا كان مصطلح «تيفيناغ» بالنسبة للأمازيغ له دلالة مرتبطة بالشواهد المكتوبة على القبور والتي جرى اقتباسها من القرطاجيين أو بالأحرى من الفينيقيين / القرطاجيين، وليس بالكتابة ذاتها.»[59].

إذاً فهناك اختلاف كبير في المواقف حول أصل الكتابة الليبية القديمة ما بين أصحاب نظرية الأصل الفينيقي وأصحاب نظرية الأصل المحلي لهذه الكتابة. ويترتب عن هذا الخلاف - الذي يبدو في ظاهره خلافا علميا وتاريخيا محضا رغم أنه ليس كذلك تماما - أبعاد أخرى مرتبطة بوجهة نظر كل طرف فيما يتعلق بموضوع الهوية اللغوية (وضمنها موضوع الكتابة) وإلى موضوع هوية الإنسان في منطقة شمال إفريقيا بشكل عام. وحتى نوضح الأمر أكثر فإن الخلفية الحقيقية للنقاش في هذا الموضوع ترتبط بشكل كبير بالموقف التي يتبناه كل طرف من موضوع العلاقة بين المكونين العربي (الشرقي في نهاية المطاف) والأمازيغي (المحلي) في هوية الإنسان في شمال إفريقيا، هل ما بينهما هي علاقة اتصال أم علاقة انفصال ؟ (وهو ما سنناقشه بالتفصيل في موضع لاحق حين نتطرق لموضوع الوعاء الحضاري).

يرى أنصار الأصل الفينيقي للكتابة الليبية القديمة (وبالتالي لكتابة تيفيناغ المشتقة منها) في هذا الأمر دليل ارتباط آخر يضاف إلى مجموعة أدلة بشرية ولغوية وثقافية وتاريخية - والأهم من ذلك - واقعية بين المكونين العربي والأمازيغي، على أساس أن الاتصال بينهما ليس مجرد موضوع تاريخي وإنما هو واقعي وآني بشكل كبير مرتبط بالواقع المعاصر للمجتمعات في المنطقة، حيث أدى الاتصال التاريخي الطويل بينهما إلى تلاقح وامتزاج كبير ما يزال مستمرا

59 - Chaker Salem. Hachi Slimane. 2000. A propos de l'origine et de l'âge de l'écriture libyco – berbère. Paris/Louvain, Editions Peeters, p.95-111.

إلى الآن. في حين يرى أنصار الأصل المحلي للحرف الليبي القديم في ذلك ضرورة ملحة لإثبات واقع الانفصال التاريخي وبالتالي الحالي (المفترض) لهذين المكونين، تمهيدا للتأسيس على ذلك من أجل الكلام عن مكون ذو طابع «أصلي» (محلي) ومكون آخر ذو طابع «دخيل» (عربي / مشرقي) يوجدان في حالة صراع تاريخي مستمر إلى اليوم من أجل فرض الهيمنة وإقصاء الآخر. إضافة إلى وجود شعور عام تحمله نخب قومية علمانية ذات تكوين ثقافي غربي (فرانكفوني بالأساس) نحو المكون العربي الذي يربط عادة بالمكون الديني الإسلامي لهوية السكان في شمال إفريقيا والذي يرمز بالنسبة إليها إلى ماضي التخلف والجمود، ويعد في نظرها العائق الرئيسي أما التقدم والحداثة!! وهذه الأفكار هي التي تمثل خلفية النقاش في موضوع اللغة والكتابة عند هؤلاء. ولا بد هنا من إيراد بعض هذه المواقف المثيرة للاستغراب حيث يقول أحد هؤلاء بأنه: «من الأفضل بكثير للأمازيغية أن تبقى على ما هي عليه محظورة... وممنوعة من المدرسة والإعلام وغير معترف بها كلغة وطنية، على أن تصبح لغة وطنية ورسمية بنص الدستور ومعترفا بها في المدرسة والإعلام والإدارة، لكن بالحرف العربي. إنها مسألة حياة أو موت، مسألة أن تكون أو لا تكون الأمازيغية...»[60]. وقد وصل الحد ببعضهم إلى القول بأن: «الحركة الأمازيغية (أو بالأحرى التيار القومي فيها وليس غير) إذا كانت موحدة حول شيء ما، فإنها موحدة حول شيء واحد هو: لا لاستعمال الحرف العربي لكتابة الأمازيغية. فإما أن نأخذ مسافة عن اللغة والثقافة العربيتين وإلا فلا وجود لنا»[61].

وفي هذا أيضا السياق يعبر أحد هؤلاء النخب ذات النزوع القومي عن هذا الموقف من المكون العربي في موضوع الكتابة - في معرض استدلاله عن رفض كتابة اللغات الأمازيغية بالحروف العربية ودفاعه عن كتابتها بالحرف اللاتيني - بالقول: «أما كون العربية تكتب بالحروف الساكنة فقط فيعد المشكل الأساسي للأبجدية العربية والعائق الأول أمام تقدم عقلية الشعوب التي تبنت الحرف العربي لكتابة لغاتها...» وهو بذلك يريد أن يقول أن خط هذه اللغة لا يصلح

60 - محمد بودهان، مقال بجريدة ثاويزا العدد 69 يناير 2003.

61 - مريم دمناتي (عضو بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالمغرب)، جريدة الصحيفة عدد 95، يناير 2003.

لشيء ، والعربية متخلفة وأصحابها متخلفون ولهذا يجب الابتعاد عنهم ويجب تغيير الوجهة نحو الخط اللاتيني، بل على العرب أنفسهم أن يغيروا خط لغتهم، يقول : «نحن نود أن يعي الإخوان العرب هذه المسألة وأن يملكوا الجرأة على إبدال الأبجدية الارامية بأبجدية أخرى أكثر فعالية...»، لكن الدافع الحقيقي المستور في هذا الموقف سينكشف بوضوح من خلال قوله : «سوف يسمح تبنيها (الأبجدية اللاتينية) بالدفع باللغة الأمازيغية مباشرة في قلب الحداثة!!! ...ومن شأن اختيار الحرف العربي لكتابتها أن يسجن اللغة الأمازيغية كما سجن العربية في عالم التخلف»[62]. إذاً فالموضوع برمته متعلق ب «الحداثة» التي تعرف بكونها غربية (لاتينية) في مقابل التخلف والجمود (العربي / الإسلامي)، وبالتالي فلا يمكن تحقيق التقدم والحداثة إلا باستنساخ التجربة الغربية الأوروبية (في نسختها الفرنسية طبعا!!) والقطيعة النهائية مع كل ما هو عربي وإسلامي حتى ولو كان جزءا من الثقافة والتاريخ الأمازيغي نفسه. ولعل أقل جواب يمكن إعطاؤه ردا على هذا الموقف هو مثال تجربة اليابان التي اقتحمت الحداثة من أوسع أبوابها دون أن تتخلى عن موروثها اللغوي أو كتابتها التي تعد من أعقد الكتابات (عدد حروفها يتجاوز الألف وتعتمد على الشكل التصويري المعقد)، بل بالعكس لعب هذا الموروث الخاص دورا كبيرا في مسيرة النهضة مشكلا بذلك خصوصية النموذج الياباني الحضاري، وهناك نماذج أخرى صاعدة مثل الصين والهند تسعى للنهضة دون التخلي عن خصوصيتها. فلماذا نحن فقط من يجب عليه أن يتخلى عن جزء من موروثه ويذوب في الأخر (الغربي) حتى يستطيع ولوج الحداثة ؟؟.

وتتقاطع المواقف بين أنصار الحرف اللاتيني وأنصار حروف تيفيناغ في موضوع رفض الحرف العربي في شمال إفريقيا واعتباره دخيلا وليس جزءا من الهوية اللغوية للناس في المنطقة. لكنهم يختلفون في الحرف البديل فإذا كان المدافعون عن الحرف اللاتيني (وهم بالمناسبة أقلية صغيرة جدا) يراهنون على مسألة «الحداثة»، فإن أنصار كتابة تيفيناغ يراهنون على موضوع « الأصالة» والذي قادهم إلى اعتبار أن هذا الحرف ليس فقط طريقة في الكتابة وإنما هو

62- عبد السلام بن ميس، بأية أبجدية يجب أن نكتب؟ مجلة نوافذ عدد 17 / 18، ملف خاص حول الأمازيغية، الرباط 2002.

تعبير عن الهوية الأمازيغية ذاتها في صفاتها وأصالتها التاريخية. لكنهم وللأسف الشديد سرعان ما ينقلبون على مواقفهم السابقة، لأنهم يدركون جيدا أن حروف تيفيناغ ليست قديمة ولا تملك مميز الأصالة الذي يتباهون به، على اعتبار أنها – في أغلب الظن – اشتقاق متأخر جدا عن الكتابة الليبية القديمة، بل هي حتى أقل قدما من الحرف العربي في المنطقة. كما أن هذه الكتابة هي غير قادرة على استيعاب الاختلافات الموجودة بين اللغات الأمازيغية الكثيرة المنتشرة في المنطقة الشاسعة لشمال إفريقيا وهي صالحة فقط للّغات التواركيّة التي ما تزال تستخدمها في التعبير المكتوب، فبالأحرى أن تمثل ثقافة شمال إفريقيا في شموليتها وعموميتها وتاريخها الطويل الممتد لما قبل اختراع تيفيناغ بالاف السنين... لذلك كان على هؤلاء أن يدعو باستمرار إلى تطوير هذا النمط من الكتابة من أجل تكييفه مع متطلبات التعبير عن اللغات الأمازيغية المختلفة والمتعددة، رغم أنهم بالمناسبة لا يعترفون بهذا التنوع والتعدد وإنما يدافعون عن لغة أمازيغية موحدة. وهذا الموقف هو اعتراف ضمني بقصور حرف تيفيناغ عن التعبير في الحد الأدنى عن التعدد اللغوي وبالأحرى أن يعبر عن الوحدة الثقافية المزعومة.

وقد وصل مشروع إعادة إحياء وتطوير حروف تيفيناغ إلى مراحل متقدمة جدا منذ بداياته الأولى مع « الأكاديمية البربرية » L'Académie Berbère في باريس أواخر ستينيات القرن الماضي، حيث بذلت جهود كبيرة لتكييف تلك الأبجدية مع واقع التعدد اللغوي عن طريق الزيادة في عدد حروفها. وتم إيصالها في البداية إلى حوالي 37 حرفا قبل أن يجري الحديث في أوساط الأكاديمية البربرية عن حوالي 44 حرفا؟! مما يعني أن هناك عملية «صناعة» حقيقية ومتواصلة لحروف يتم اختراعها في المختبر في تناقض صارخ مع شعارات الأصالة والأقدمية التاريخية التي يجري الترويج لها على أنها المعيار الأساسي لاختيار الحرف المناسب لكتابة اللغات الأمازيغية. ومن مظاهر الأزمة التي تعاني منها كتابة تيفيناغ كونها لا تحظى بالإجماع حتى ضمن أنصارها أنفسهم فالخلاف حول عدد حروفها وطريقة كتابتها ما يزال مستمرا إلى اليوم، فقد أوصلها سالم شاكر إلى 32 حرفا منها ثلاثة مصوتات في حين بلغت عند بلانغيرنو Blanguerno إلى 26 حرفا فقط وأقل من

ذلك عند أحمد هبو الذي أوصلها إلى 24 حرفا فقط متفقا في ذلك مع محمد علي ديوز رغم وجود بعض الاختلافات الطفيفة بينهما في طريقة كتابة بعض تلك الحروف، وأقل منهم جميعا يقدم محمد سعيد القشاط لائحة من 22 حرفا فقط، هذا في الوقت الذي ما تزال مختبرات المعاهد المختلفة تقوم باختراع حروف جديدة تجاوزت الأربعين ولا يبدو أن تلك العملية ستتوقف قريبا[63].

هذا في ما يخص عدد الحروف أما في موضوع طريقة الكتابة فإن الخلاف ما يزال دائرا حول اتجاه الكتابة، ما دام أن تلك تيفيناغ – مثل الكتابة الليبية القديمة - كتبت تاريخيا في اتجاهات مختلفة من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى، وهو ما يجعل ادعاء اتجاه «أصلي» مسألة غير ممكنة، رغم أن جزءا مهما من أنصار هذه الكتابة يرفضون اعتماد الاتجاه من اليمين إلى اليسار ويدعون بالمقابل إلى اعتماد الاتجاه اللاتيني في الكتابة أي من اليسار إلى اليمين في محاولة ضمنية لترسيخ القطيعة مع العربية حتى في اتجاه الكتابة!! والنسخة الحديثة من تيفيناغ كما تقدمها «الأكاديمية البربرية» منذ ستينات القرن الماضي تكتب من اليسار إلى اليمين وهي التي تم اتخاذ شكل معدّل منها لأغراض التدريس في المغرب الذي بدأ العمل به منذ فترة قصيرة.

لكن ما ينساه الطرفان – سواء المدافعون عن الحرف اللاتيني أو تيفيناغ – أن الكتابة العربية هي في نهاية المطاف جزء من الهوية اللغوية والتاريخية لسكان شمال إفريقيا ويتعدى مجال تأثيرها المكون العربي إلى المكون الأمازيغي نفسه على اعتبار أن أغلب التراث الأمازيغي القديم المدون هو تراث ما بعد إسلامي ومكتوب بالكامل بالحرف العربي كما يدل على ذلك العدد الكبير من الكتب والمخطوطات القديمة المنتشرة في الخزانات والمعاهد والمتاحف. ومن الأمثلة الشهيرة عن ذلك كتابات المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية في القرن 12ميلادي، والذي يعد أحد أبرز الزعامات الأمازيغية في التاريخ. وهو بالمناسبة قد كتب أيضا كتبا باللغة العربية إضافة إلى كتاباته باللغة الأمازيغية مجسدا

63- عبد المجيد جحفة، تمثيل الأمازيغية كتابة، أوهام وأغاليط. ضمن كتاب الأمازيغية في الهوية والثقافة. منشورات منتدى المواطنة 2004، 169 - 171.

بذلك إحدى الصور الأولى للتداخل والاتصال بين المكونين العربي والأمازيغي في هوية سكان شمال إفريقيا. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه وخلال التصويت النهائي الذي اعتمده المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في المغرب سنة 2003 من أجل تبني حرف الكتابة للأمازيغية وهو الموضوع الذي أثار جدلا واسعا حوله في ما عرف ب «معركة الحرف»، كان نصيب تيفيناغ 24 صوتا من مجموع أصوات 32 عضوا، بينما حظي الحرف اللاتيني ب 8 أصوات، أما الحرف العربي فكان نصيبه صفرا. وهذه النتيجة وحدها كافية للدلالة على مدى الانحياز ومعاداة كل ما له علاقة بما هو عربي، وإقصاء أحد مكونات هوية سكان شمال إفريقيا المتمثل في الحرف العربي والكتابة العربية التي هي إرث مشترك بين جميع سكان هذه المنطقة سواء الناطقين أو غير الناطقين باللغات الأمازيغية. إن النزول بالحرف العربي إلى درجة الصفر (على الأقل في مقابل الحرف اللاتيني) على مستوى أصوات أعضاء المجلس الإداري للمعهد يكشف عن الكثير من الجوانب المسكوت عنها في خطاب النخب القومية الأمازيغية ومن بينها على الخصوص معاداة كل ما له علاقة بالمكون الثقافي العربي"[64]. ولعل من المثير للاستغراب أنه كان من بين هؤلاء وربما أبرزهم عميد المعهد وعميد البحث الثقافي الأمازيغي في المغرب الأستاذ محمد شفيق الذي كان من أوائل من دعوا إلى كتابة اللغات الأمازيغية – على الأقل في المغرب – بالحروف العربية، إذ بيّن أن ذلك ممكن ومتاح وابتدع لذلك طريقة رائدة سماها بـ «أرّاتن» (ومعناها الحروف أو الكتابة) نشرتها الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي ما بين سنتي 1974 و 1975، واعتمدها فيما بعد في معجمه الشهير الذي يحمل عنوانا ذو دلالات بليغة : «المعجم العربي الأمازيغي» الصادر عن أكاديمية المملكة المغربية سنة 1989، لكنه في النهاية وبعد كل هذا التاريخ الطويل صوّت لمصلحة حرف تيفيناغ متناسيا موقفه السابق الذي عبر عنه في أحد كتبه حين قال أنه «وحتى وقت قريب كان الطوارق يستعملون حروفا هجائية خاصة تعرف بتيفيناغ، ولكن البربر (الأمازيغ) في معظمهم قد استغنوا عن تلك الحروف منذ زمن بعيد وأعرضوا عن كتابة لغتهم بها تمسكا بالعربية لغة دينهم...»[65]. فما الذي تغير منذ ذلك الوقت حتى

---

64 – رشيد الإدريسي، الأمازيغية بين التصور المأصول والتصور المنقول، ضمن كتاب الأمازيغية في الهوية والثقافة، منشورات منتدى المواطنة 2004 ص 54.

65 – محمد شفيق، التعريف باللغة البربرية. مجلة آفاق العدد 2، سنة 1964.

انقلبت المواقف إلى هذه الدرجة ؟! إن الجواب مرتبط بالمسار التاريخي للحركة الأمازيغية نفسها والذي بدأ برفع الشعار التعددي الشهير «الوحدة في التنوع» فيما يتعلق بهوية الإنسان في شمال إفريقيا، وانتهى برفع الشعار القومي الضّمني عن أن «وجود المكوّن الأمازيغي يقوم على نفي المكوّن العربي» من هوية الإنسان الأمازيغي (المفترض) في شمال إفريقيا، ولو حصل الحرف العربي أثناء التصويت في المعهد على صوت واحد فقط لكان ذلك صك براءة من تهمة معاداة المكون العربي في الهوية، لكن أن يحصل الحرف اللاتيني (حرف الاستعمار الفرنسي وذيوله الفرانكفونية ونخبه الانتهازية) على 8 أصوات في مقابل الصفر العربي فهذا أكبر دليل على تحوّل عميق نحو نزعة قومية تقوم على أساس إثبات الذات من خلال نفي الآخر. وللأسف الشديد الأستاذ شفيق ليس استثناءا من هذا المسار، فهو الآخر بدأ تعدديًا يؤمن بالتنوع وينظّر للتداخل والاتصال في علاقة المكونين العربي والأمازيغي من هوية الإنسان في شمال إفريقيا وانتهى قوميا يدعو للانفصال بينهما. وقد حاول الأستاذ شفيق أن يبرر هذا الموقف من خلال ادعاءه وجود إجماع أمازيغي على حرف تيفيناغ، وذلك حينما سئل في أحد الحوارات الصحفية مع القناة المغربية الأولى : لماذا حرف تيفيناغ ؟ فأجاب: لأنه حرف الإجماع الأمازيغي؟! وهذا القول عن أن تيفيناغ حرف «الإجماع الأمازيغي «هو كلام فيه الكثير من الافتراء والتضليل: فأين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ حصل هذا الإجماع المزعوم، سواء في الماضي القديم أو في عصرنا الحالي، ما دام لم يكن هناك عبر التاريخ الطويل لشمال إفريقيا نظام موحد لكتابة اللغات الأمازيغية المختلفة وانفردت كل منطقة في زمن معين بكتابة معينة ابتداءً بالحروف الليبية القديمة ووصولا إلى الحروف العربية. وإذا كان الحديث عن الإجماع الأمازيغي في المغرب مثلا يراد به الإشارة إلى النتيجة التي انتهى إليها التصويت في المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، فهذه النتيجة لا تعبر إلا عن موقف أصحابها لا غير ما دام المعهد نفسه ليس مؤسسة ديمقراطية منتخبة من طرف الشعب وإنما هي مؤسسة معينة (جرى تأسيسه بظهير ملكي وأعضاء إدارته يعينهم الملك ولا ينتخبهم الشعب) ولا تحظى بالإجماع حتى داخل الحركة الأمازيغية نفسها بدليل وجود مناوئين كثيرين لها (حصول انشقاقات عديدة داخل الحركة الأمازيغية عقب تأسيس المعهد وتهافت كثير من نخب الحركة للحصول على مقعد العضوية

فيه). و بالتالي وفي غياب أي استفتاء حقيقي للشعب المغربي حول رأيه في الموضوع لا يستطيع أحد - مهما كان - أن يدعي أن هذا الحرف أو ذاك هو حرف إجماع.

لكن الحقيقة الأهم في ما يتعلق بموضوع الحرف أنه وفي غمرة النقاش التاريخي والثقافي وحتى السياسي، حول موضوع الكتابة - وبالتالي موضوع اللغة - في شمال إفريقيا، ينسى الجميع - أو ربما يتناسون - حقيقية مهمة جدا وبالغة الدلالة في موضوع تاريخ الكتابة في المنطقة، وهو ما يتعلق بحقيقة أن الكتابة في شمال إفريقيا مثلها مثل اللغة (ما دامت انعكاسا لها) وعموما مثل الهوية، خاضعة لقاعدة التعدد والتنوع التي كانت نتيجة عملية طويلة ومعقدة ومتواصلة من انصهار عدد كبير من المكونات والعناصر واندماجها مع بعضها البعض.

وفي موضوع الكتابة فقد عرفت منطقة شمال إفريقيا عبر تاريخها الطويل عددا كبيرا من أنماط الكتابة المختلفة والمتنوعة مثل الكتابة الليبية القديمة والكتابة البونية (الفينيقية القرطاجية) والكتابة تيفيناغ والكتابة العبرية والكتابة العربية... وحتى فيما يخص الكتابة الليبية سواء القديمة منها أو الحديثة (تيفينا) فهي الأخرى خاضعة لقاعدة التعدد والتنوع وليست استثناءا عنها. فمنذ زمن طويل وعلماء اللسانيات يقولون بوجود ثلاث أبجديات ليبية قديمة والتي تختلف عن بعضها البعض في عدد الحروف وفي توزيعها الجغرافي : النوع الأول ويسمى الليبية الشرقية، والثاني يسمى الليبية الغربية والثالث يسمى الليبية الصحراوية. لكن الأبحاث الحديثة بينت أن الواقع أكثر تعقيدا مما يبدو عليه : « ففي غياب تحديد واضح للمجال الجغرافي لكل أبجدية على حدة والتي تعبر عن ثقافة معينة، فإن خلطا كبيرا لطالما جرى ويجري بين هذه الأنماط المختلفة من الكتابة، حيث عادة ما يتم خلط الليبية الشرقية بالغربية ومجالات انتشارهما، مع إهمال التنوع اللغوي الكبير الذي عرفته المنطقة منذ أمد بعيد إلى يومنا هذا... » [66].
ومنذ القرن التاسع عشر وعلماء اللسانيات والآثار يصنفون الكتابة الليبية القديمة إلى صنفين من الأبجديات : الأبجدية الشرقية والأبجدية الغربية، وتعد الحدود

66 -Aghali Zakara M. et Droutin J. 1997, Ecritures Lipyco- berbères. L'Aventure des écritures. Naissance, p.101.

الشمالية التونسية الجزائرية بمثابة الخط الفاصل بينهما. لكن ومع تقدم الأبحاث اتضح أن هذا التقسيم القديم صار متجاوزا، حيث يجري الحديث مؤخرا عن عدد كبير من الأبجديات المحلية المختلفة حسب اختلاف مناطق شمال إفريقيا. وقد ربط هذا التنوع الكبير في الكتابة الليبية بعدة عوامل مختلفة يبقى أهمها : التأثير المحلي المختلف في تطور الأبجدية، التأثير الأجنبي للأبجديات المختلفة وخصوصا الأبجدية الفينيقية – البونية (القرطاجية)، إضافة إلى تأثير التقسيم الاجتماعي والإثني لمناطق شمال إفريقيا. وهو ما جعل عددا من الباحثين يتحدث عن أبجديات ليبية عوض الحديث عن أبجدية ليبية واحدة[67]. وترجع المصادر التاريخية الحروف الليبية الشرقية والغربية – والتي تعد متزامنة – إلى تاريخ يعود إلى القرن الثالث أو الثاني ق.م. ويؤرخ عدد كبير من النقوش والكتابات القديمة بالحروف الليبية بتاريخ يتراوح بين القرن الثالث ق.م والقرن الخامس ميلادي. ومن المعروف اليوم أن تلك النقوش المنتشرة في الصحراء تنقسم بدورها إلى عدد من الأبجديات المحلية المختلفة : ففي منطقة الصحراء الوسطى وبالضبط بمنطقة «دجرما» في فزان (ليبيا) كشفت التنقيبات الأثرية عن أواني عليها نقوش بكتابة متميزة تعود إلى القرن الأول ميلادي. وفي منطقة « أبو نجيم » (ليبيا) توجد أدلة أثرية عديدة على أن الجرمانتيين (الليبيون القدماء) كانوا يملكون نمط كتابة خاص بهم في القرن الثاني ميلادي. ونعلم أنه من خلال الضريح الأثري المعروف ب « تين حينان» في منطقة «أباليسا» (الجزائر) والذي يعود إلى القرن الخامس ميلادي، حيث عثر في الأحجار التي استخدمت في بنائه على نقوش لها شبه ملحوظ بحروف تيفيناغ الحديثة. مما دفع بعدد من الباحثين إلى اعتبار أن أبجدية تيفيناغ القديمة قد تعود إلى القرن الخامس ميلادي وهي بذلك تكون أقدم مما يظن عادة ومعاصرة لبقية الكتابات الليبية الأخرى المنتشرة في شمال إفريقيا وليست اشتقاقا منها[68].

وقد تم اكتشاف آلاف النقوش الصخرية وعليها كتابات مختلفة في منطقة شمال إفريقيا، لكن تاريخها لا يصل إلى فترة ما قبل التاريخ (الألف الرابعة ق.م). ويجري عادة التمييز بين نوعين من تلك النقوش : النوع الأول والذي يصطلح

67 -Ahmed Siraj. Aux origines de l'écriture au Maghreb. L'ESSENTIEL février 2002
68 - Camps G. 1996, p. 2564.

عليه بالليبي – الأمازيغي، وينتشر في جنوب المغرب وشرق الجزائر وباقي مناطق الصحراء. ويتميز هذا النوع بوجود رموز ذات حجم صغير ومسنونة باستخدام أداة حادة أو علامات رقيقة ومرفقة بكتابة من نوع تيفيناغ القديمة. وشكل هذه الأخيرة يمثل مرحلة وسيطة بين الليبية القديمة وتيفيناغ الحديثة الموجودة عند مجموعات التوارك (الطوارق). ويمتد هذا النوع زمنيا إلى حدود العصور الوسطى الإسلامية. أما النوع الثاني وهو أقدم من الأول، فيتميز بأسلوب من النقش أكثر عمقا و يتناول مواضيع عن حيوانات انقرضت محليا في منطقة شمال إفريقيا. ولكن مشكلة تأريخ هذه النقوش تظل مسألة صعبة التحديد بسبب انعدام وجود عناصر موثوقة. وقد عثر مؤخرا على مجموعة من النقوش التي يرجح أنها تعود إلى فترة العصور الوسطى والتي تحمل رموزا ما تزال غير مفهومة بالنسبة للباحثين"[69].

وفي المغرب أدت الأبحاث الأثرية إلى العثور على نمط خاص من الكتابة القديمة المنتشرة على امتداد مجال جغرافي واسع، ونقطة البداية في هذا المجال الجغرافي هي مقبرة أبو عمار الموجودة على بعد 2 كلم جنوب مدنية المحمدية على الضفة اليمنى لواد المالح قرب مصبه في المحيط الأطلسي. يضم الجزء المهمل من المقبرة عشرات القبور التي تعود إلى عدة قرون مضت. تتميز التوابيت الظاهرة بوجود عدد من الرموز والعلامات عليها، والتي لا يمكن مقارنتها سواء بالشواهد الإسلامية أو بالأسلوب القديم لما قبل الحقبة الإسلامية. وفي سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين اكتشف الباحث ألكسي دينيس مقابر أخرى تحمل نفس الطابع بالقرب من رأس البدوزة شمال مدينة أسفي. لا يتجاوز مجال انتشار هذه المقابر – لحد الآن – أراضي برغواطة التاريخية وهي تجمع القبائل المصمودية القاطنة على السهول الأطلنطية للمنطقة المعروفة قديما بتامسنا (المنطقة الممتدة بين مدينتي القنيطرة وأسفي). يطرح بعض الباحثين إمكانية أن تكون تلك المقابر عائدة إلى القرون الثلاثة التي ازدهرت فيها حضارة برغواطة، رغم أن المصادر التاريخية القديمة لطالما قدمت لنا صورة مشوهة عنها. فهذه المجموعة التي أدينت تاريخيا بكونها اخترعت ديانتها الخاصة – والتي

69 -Ahmed Siraj. Aux origines de l'écriture au Maghreb. L'ESSENTIEL février 2002.

كانت: عبارة عن خليط ما بين اليهودية والمسيحية والإسلام والطقوس السحرية إضافة إلى المعتقدات الأمازيغية القديمة – لم تختفي هكذا ببساطة دون أن تخلف وراءها حدا أدنى من الآثار المادية التي تعكس جزء من تلك المعتقدات القديمة. لحد الآن لم تنجح أي من التفسيرات المقترحة لتلك الآثار ولكن يبدو أن الأمر يتعلق برموز ذات طبيعة مزدوجة سحرية – دينية[70].

وفي ختام هذا الفصل لا نملك إلا أن نؤكد النتيجة التي توصلنا إليها حول واقع التعدد والتنوع الكبيرين الذين عرفتهما وتعرفهما منطقة شمال إفريقيا في موضوع اللغة والكتابة سواء في الماضي أو في الحاضر، وهي نفس النتيجة التي توصل إليها في الماضي الباحث غوتيي F. Gautier الذي أكد أن « ... لا وجود لكتاب واحد باللغة الأمازيغية القديمة، ولا توجد كتابة حقيقية لها... بل أكثر من ذلك لا توجد –ولم توجد في الماضي أيضا – لغة أمازيغية واحدة منتظمة وموحدة... »[71].

VI- الدارجة المغاربية والانصهار اللغوي الأمازيغي / العربي في شمال إفريقيا

كثيرا ما يحدث لمغاربي (جزائري أو مغربي) يتحدث مع عرب مشارقة، بلهجته العربية التي تسمى «العربية الدارجة» أن يجد هؤلاء صعوبة كبيرة في استيعاب كل ما يقوله. ولا يرجع ذلك فقط إلى اللكنة التي تطغى على نمط نطق الكلمات فقط وإنما يتجاوز ذلك إلى العجز عن استيعاب بعض الكلمات والعبارات ومعانيها وصولا إلى البنية النحوية والصرفية للجمل وطريقة الربط بينها، رغم أن الجميع يقر بأن أغلبية مفردات المعجم المتداول في الدارجة هي كلمات عربية. ولم يكن هذا الوضع وليد اليوم فقط، فقد عبر عنه المقدسي في الماضي حين تحدث عن الوضعية اللغوية المميزة لشمال إفريقيا ووصف عربية المغرب (الدارجة) بأنها « شديدة الاختلاف عن عربية البلدان الإسلامية الأخرى، منغلقة عسيرة الفهم، أما البربرية فلا يستطاع فهمها أصلا... »[72]. فمن أين يأتي

70 - Siraj Ahmed. L'ESSENTIEL février 2000.

71 -Gautier E.F. Considération sur l'Histoire du Maghreb. Revue Africaine,1929, Vol 68.

72 - محمد بن أحمد المقدسي، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2003 ص 243.

هذه الصعوبة التي تطرح للعرب في تعاملهم مع الدارجة المغاربية ؟ ومن أين يأتي هذا الاختلاف بين الدارجة وعربية البلدان الأخرى ؟

تعود جذور الموضوع إلى الزمن الذي جاءت فيه العربية وانتشرت في منطقة شمال إفريقيا، والتحولات العديدة التي عرفتها، إضافة إلى المشهد اللغوي السابق التي وجدته هناك. فبعكس مناطق الشام والعراق حيث كان للتقارب الكبير بين العربية وبقية اللغات السامية الأخرى مثل الآرامية والبابلية دور كبير في سهولة تعريب تلك المناطق بشكل كامل مع احتفاظ كل منطقة ببعض الخصوصيات اللغوية البسيطة. في حين أنه في شمال إفريقيا كان لذلك التباعد اللغوي بين العربية و الفرع اللغوي الأمازيغي دور كبير في معرفة العربية عند انتشاراها في المنطقة لعملية « تكييف و تبيئة» طويلة، انتهى بها المطاف إلى إعطاء الدارجة المغاربية التي تعبر بشكل كبير عن هذه العملية التاريخية الطويلة التي صهرت معطيات لغوية عديدة عربية و أمازيغية في قالب واحد.

ويعتقد علماء اللسانيات أن اللغات القديمة لا تنقرض بشكل كامل ولا تختفي نهائيا حينما يتخلى شعب ما عن لغة سابقة ويتبنى لغة جديدة، لأنها تبقى تؤثر في طريقة تقبلهم للغة الجديدة ووعيهم بها، كما يحدث عادة نوع من التمازج بين المعطيات اللغوية القديمة وتلك الحديثة على جميع المستويات المعجمية والنحوية وحتى في اللكنة... ويذهب اللسانيون في تفسير ذلك إلى أن اللغة تؤثر في ذهنية من يتكلمونها وتطبع طريقة تفكيرهم وتمثلهم للأشياء. وهو ما يؤدي في حالة انتشار لغة ما في مناطق مجالات جغرافية للغات أخرى إلى ظهور نسخ عديدة من تلك اللغة حسب المناطق المختلفة واللغات السابقة المختلفة أيضا. ولعل من الأمثلة المعروفة جدا عن هذه الظاهرة والتي عرفت أكبر قدر من الدراسات اللسانية، هي تلك المتعلقة باللغات اللاتينية المختلفة، مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية... فقد أدى انتشار اللاتينية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية القديمة إلى اختفاء عدد من اللغات القديمة مثل الإتروسكية والسّلتية والقوطية وتعويضها باللاتينية. لكن اللاتينية في هذه المناطق المختلفة لم تكن واحدة وموحدة، بل انطبعت كل واحدة من تلك اللغات اللاتينية المختلفة بتأثيرات اللغات الأخرى السابقة على اللاتينية، وأخذت بذلك طابعها الخاص المميز.

لم تكن منطقة شمال إفريقيا استثناء في هذا الموضوع، فحين انتشرت العربية في المنطقة بعد انتشار الإسلام بها ودخول المنطقة في المجال الحضاري الإسلامي، ثم ما حدث فيما بعد من عملية تعريب واسعة عقب هجرة القبائل الهلالية إلى المنطقة والظروف التاريخية والاجتماعية التي صاحبت ذلك لعربية (راجع الفصل السابق)، وجدت العربية قبلها مجموعة من اللغات المنتمية أساسا إلى الفرع اللغوي الأمازيغي والتي تختلف فيما بينها حسب المناطق الجغرافية المختلفة، فكان لا بد للعربية من الخضوع للأحكام القوانين التاريخية التي تحكم ظاهرة انتشار اللغات في مناطق جديدة بعيدا عن مجالها الأول، وعلى رأسها قاعدة التأثير والتأثر المؤدي إلى ظاهرة الانصهار...

فقد كانت للهجرة الهلالية تأثير بالغ في منطقة شمال إفريقيا على المستوى الاجتماعي والثقافي واللغوي صار معها الوجود العربي مسألة أمر واقع تجلى على جميع تلك المستويات، وإن كان أبرزها تمثل في دخول العربية إلى هذا المجال الجغرافي الجديد وتحولها إلى أحد المكونات المتعددة للمشهد اللغوي التعددي في شمال إفريقيا. وقد سمحت التغريبة الهلالية للعربية بالخروج من مراكزها في المدن الكبيرة مثل القيروان وفاس وغيرها وانتشارها في البوادي بشكل واسع وعميق وشملت معظم مناطق شمال إفريقيا لتؤثر بذلك وبشكل عميق في مجمل البنية اللغوية لشمال إفريقيا. لكن ذلك لم يكن التحول الوحيد العميق الذي حصل، فلم تكن العربية هي الوحيدة التي تؤثر في اللغات الأمازيغية، بل ففي المقابل كانت العربية تعرف تحولات كبيرة مسّت بنيتها المعجمية والنحوية والصرفية تحت تأثير اللغات الأمازيغية التي فرضت على العربية ضغطا لغويا موازيا لضغط العربية عليها، ما أدى في النهاية إلى انصهار المكونين اللغويين في لغة جديدة، صارت تعرف بـ« الدّارجة» أو «العربية الدارجة» ، هي أقرب معجمياً إلى العربية ونحوياً إلى الأمازيغية، والتي صارت لغة التخاطب اليومي في مناطق شمال إفريقيا خاصة في المغرب والجزائر (حيث كان العامل اللغوي الأمازيغي - وما يزال - قويا ومؤثرا بشكل كبير...)، مع ظهور نسخ لغوية أخرى جاءت أقل تأثرا بالموروث اللغوي الأمازيغي خاصة في المناطق الشرقية من شمال إفريقيا (ليبيا، تونس...) أو في الصحراء (جنوب المغرب، موريتانيا...)

مع ظهور «الحسّانية» نتيجة اندماج العربية في الأمازيغية «الزناغية» (تزناكَت) وفي الموروث الثقافي للمجموعات الصنهاجية في موريتانيا والجنوب المغربي على أساس أن عرب معقل الذين نشروا العربية في الصحراء هم مجموعة صغيرة جدا لا يتجاوز عددها حوالي مائتين حسب الرواية التاريخية لابن خلدون، وبالتالي انصهارهم الكامل في الكتلة البشرية الصنهاجية الكبيرة في منطقة الصحراء.

ولعل من أبرز المظاهر التي يبدو عليها هذا التأثير الأمازيغي في العربية الدارجة، وأكثرها وضوحا منذ البداية هو موضوع الصوتيات وطريقة النطق، حيث كان للنسق الفونولوجي الأمازيغي ونظامه الخاص في نطق الحروف أو ما يعرف بـ«نظام مخارج الحروف»، دور أساسي ومحدد في ظهور الطريقة المميزة للمغاربيين في نطق الكلمات والعبارات العربية. وأكبر مثال على ذلك ما هو معروف عن طغيان الصوامت (الحروف المسكنة) على الكلمات الأمازيغية وندرة الصوائت، ما أثر بشكل كبير على طريقة نطق الكلمات العربية في الدارجة والتي تحذف منها الصوائت (حروف العلة والحركات) لتنطق على الطريقة الأمازيغية، المتجسدة في طغيان الحروف المسكنة دون حركات. وقد أكد الباحث المغربي في مجال اللسانيات محمد المدلاوي ذلك حين قام بمقارنة البنية اللسانية لبعض اللغات الأفروآسيوية خاصة العربية والأمازيغية منها، وخلص إلى أن : «تاشلحيت (أمازيغية سوس والأطلس الكبير) تتميز من الناحية الدياكرونية على المستوى الحامي السامي (الأفروآسيوي) بأنها عرفت ظاهرة سقوط الحركات القديمة بشكل مكثف كحال العربية المغربية الدارجة مقيسة إلى لغة سامية قديمة مثل العربية الفصحى...»[73]. وهو ما دفع بعدد من الباحثين في مجال اللسانيات المقارنة إلى التأكيد على حقيقة بارزة مفادها أن : «الأمازيغية هي الفرع اللغوي الذي تنحدر منه كل القيود والاستعدادات البارامترية المتحكمة في طريقة وآلية تطبيع الكلمات في العربية الدارجة...»[74].

73 - محمد المدلاوي، مبادئ المقارنة الحامية السامية على ضوء مفهوم الفصائل الصوتية الطبيعية. مجلة كلية الآداب وجدة، العدد1، 1990.

74 - Dell. F. Elmadlaoui.1988 M. Syllabic Consonant and syllabification in Imdlawn Tachlhiyt Berber. Journal of African Languages and Linguistics 7 : 105-130.

ويفصّل الدلاوي هذا التأثير فيما يسميه قوانين التقابل بين العربية الفصحى والدارجة، أي القوانين اللغوية التي خضعت لها العربية حين انتشرت في شمال إفريقيا وتأثرها بالقوالب اللغوية الأمازيغية السابقة عليها، كما يبدو ذلك على المستوى الفونولوجي، حيث يلخص بعض تلك التأثيرات في :

1- استحالة الحركة إلى حركة مختلسة.

2- سقوط الحركة المختلسة في المواقع غير المنبورة.

3- استحالة همزة القطع في الجذر إلى حرف علة من جنس الحركة المجاورة.

4- استحالة حرف العلة في ذيل المقطع إلى حركة من جنسه.

5- استحالة حرف العلة في صدر المقطع إلى حركة من جنسه في آخر مراحل البناء المقطعي.

6- قيام الصحاح بوظيفة النواة المقطعية، حسب جرسيتها النسبية.

7- غلبة الصحاح الناغمة على الحركة المختلسة في احتواء نواة المقطع.

8- سقوط همزة القطع الزائدة.

9- اتقاء توالي الحركات على طريق زرع أحرف الوقاية أو قلب الحركة إلى حرف علة.

10- تعليم المؤنث بفتحة لاحقة في حالة إرسال، وبتاء في حالة إضافة.

11- سلم الجرسية من الأخف نحو الأثقل هو : الفتحة والألف «الكسرة والياء والضمة والواو» الراء «الأنفيات» الاحتكاكيات «الانفلاقيات الناغمة...»[75].

ويقدم الدلاوي عددا من الأمثلة على ذلك من قبيل التحولات التي عرفتها كلمات : سَيْف > سِفْ ، دَلْو > دُلْ ، جَبَل > جْبَل، حُلْو > حْلُ، جَاز > دَزْ ، جِنْس (نوع) > كْنْسَ... وغيرها من العبارات الأخرى التي طرأ عليها تحول فونولوجي مع انتقالها من العربية الفصحى نحو الدارجة. ويبرهن بأن هذا النظام الفونولوجي هو في أصله نظام لساني أمازيغي على اعتبار أن اللغات

75- محمد الدلاوي، ندوة بكلية علوم التربية بالرباط بتاريخ 25 أبريل 1996، مذكور في محمد شفيق، الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة معاجم 1999 ص 16.

الأمازيغية تستخدم نفس النظام في تبيئتها للكلمات العربية واللاتينية التي تم إدخالها إلى المعجم الأمازيغي ودمجها فيه.

كما بين المدلاوي أيضا أن نظام التركيبة المقطعية (Syllabation) في الأمازيغية هو الذي يفسر نظام التركيبة المقطعية في العربية الدارجة، وهو ما يفسر مثلا غياب ظاهرة المد في كليهما[76].

ويضيف الباحث المغربي محمد شفيق أمثلة أخرى إلى ما سبق عن التأثير الفونولوجي الأمازيغي في العربية الدارجة وهي:

1 - إسكان الحرف الأول في الكلام، بينما في العربية الفصحى لا يمكن البدء بسكون أبدا.

2 - إسقاط المد من الكلمات (أمثلة : الوَاقِف > لْوَقْفْ ، الموسى > لْمُسْ...).

3 - حذف همزة القطع (أمثلة : الإسلام > لِسْلَمْ ، الأمين > لَمِنْ...).

4 - تفخيم الراء المكسورة في عدد من الكلمات مثل : التاريخ والفريق...

5 - الكشكشة المختلسة أي نطق الكاف مثل الشين، كما هو الأمر في اللغة الألمانية أيضا...

6 - لا وجود للحروف المعجمة : الثاء والذال والظاء في الدارجة لأنها تغيب في الأمازيغية..."[77].

هذا على المستوى الفونولوجي السطحي الذي يستطيع المرء تمييزه لأول وهلة، لكن التأثير الأمازيغي في الدارجة لا يقتصر على هذا المستوى فقط، بل يتعداه إلى جميع المستويات الأخرى حتى تلك العميقة منها. فعلى المستوى المعجمي خضعت كل من اللغات العربية والأمازيغية لمنطق التأثير والتأثر المزدوج والمتبادل بينها. وبذلك دخل عدد كبير من الكلمات العربية في المعجم الأمازيغي وصارت تشكل نسبا مهمة من البنية المعجمية لهذه اللغات. وفي المقابل دخل عدد كبير من الكلمات الأمازيغية في المعجم المتداول في العربية الدارجة وصار

---

76 - Dell. F. Elmadlaoui. M. 1988. Syllabic consonants in Berber : some new evidence. Journal of African Languages and Languistics 10 : 1-17.

77- محمد شفيق، الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة معاجم 1999 ص 18.

جزء لا يتجزأ من ذلك المعجم. وفي غياب أية دراسات علمية جدية وموثوقة في هذا المجال عن نسبة تلك الكلمات من المعجم العربي الدارج، فإن أي محاولة لتحديد هذه النسبة بدقة هي من قبيل التخمين، وإن كان يبدو أن عددها كبير ومؤثر. ويستخدم المغاربيون عددا كبيرا من الكلمات الأمازيغية الأصل في عربيتهم الدارجة، وهذا على سبيل المثال – لا الحصر – جزء من هذه البنية المعجمية للعربية الدارجة ذات الأصول الأمازيغية متمثلا في كلمات من قبيل: بزاف (معناها كثير)، زرب (معناها السرعة)، أرا (أعطني)، واخا (حسَنا)، سالا (أنهى، أو انتهى)، شكون (مَنْ)، لعافية (النار)، مْش (القط، وأصلها الأمازيغي أمْشْ)، زعطوط (القرد)، فكرون (السلحفاة)، شعكوكة (الشعر المنكوش)، المازوزي (المبكر من المزروعات وأصلها أمازوز)، خيزو (الجزر)، أكناري (تين شوكي)... واللائحة طويلة جدا ليس هذا مقام الاستطالة فيها. إذا فجزء مهم من مفردات المعجم المتداول في العربية الدارجة هو معجم أمازيغي فرضته ضرورات التلاقح والانصهار اللغوي بين المكونين العربي والأمازيغي في المشهد اللغوي التعددي لشمال إفريقيا.

أما على مستوى النحو والبنية التركيبية للجمل في العربية الدارجة، فإن التأثير الأمازيغي يبدو أكبر بكثير وأكثر عمقا وتجذرا، إلى درجة يمكن معها القول بأن الدارجة أقرب على المستوى النحوي إلى الأمازيغية منها إلى العربية الفصحى. ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك، أن الدارجة شأنها شأن اللغات الأمازيغية لا تعرف وجود المثنى في الإعراب حيث يعامل هذا الأخير معاملة الجمع، أي أن الجمع يبدأ من العدد اثنان وليس من العدد ثلاثة كما هو الشأن في العربية، ففي العربية مثلا يقال: ذهب رجلان إلى السوق... في حين يقال في الدارجة: زوج رجال مشوا ل السوق... وعلى المستوى الصرفي انتقل عدد من الصيغ الصرفية من الأمازيغية إلى العربية الدارجة منها على سبيل الذكر صيغة «تفعّالت» للدلالة على أسماء الحرف والصناعات، مثل تنجّارت (النجارة)، تبقّالت (البقالة)، تجزّارت (الجزارة)، تبنّايت (البناء)... وغيرها من أسماء الحرف الأخرى التي احتفظت بالكلمات العربية لكنها تصاغ بالصياغة الأمازيغية. ومن الأمثلة التركيبية الأخرى ما تعرفه صيغة النسبة للإضافة التي تتم في العربية الدارجة وفي اللغات الأمازيغية باستخدام أداة للإضافة هي حرف

النون المسكن (نْ) في الأمازيغية وأدوات «نتاع / ديال» في الدارجة، في حين أن الإضافة في العربية الفصحى تتم دون أداة وفقط بالإعراب.

وقد جرى في الدارجة ترجمة بعض الصياغات الأمازيغية ترجمة حرفية دون احترام لقواعد الإعراب والنحو العربي من قبيل : «فكر مع رأسك» (فكر بمفردك)، والتي هي ترجمة حرفية عن الصياغة الأمازيغية «سويتكيم دتخفنك»، أو «بحال بحال» (نفس الشيء) المترجمة من صياغة «زوند زوند»، أو «جاء معه هذا اللباس» (لباسه جميل) المترجمة حرفيا عن الأصل «أوشكاند ديس الحوايج»، أو «كاين البرد» (الجو بارد) المترجمة حرفيا عن «إيلا وصميد»... وغيرها من الصياغات الأخرى الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها جميعا، والتي تدل على مدى الثير الأمازيغي البليغ في العربية الدارجة، حيث تم تعويض المعجم الأمازيغي الأصلي بمعجم عربي دون تغيير البنية النحوية العميقة للغة.

وفي الختام لا نجد في موضوع علاقة العربية الدارجة باللغات الأمازيغية والعربية الفصحى، إلا أن نعيد ما كان قد قرره هوبير Hubert منذ زمن طويل عن الفرنسية وعلاقتها باللاتينية والسلتية، في كتابه «السلتيون» حين قال : أن الفرنسية هي لاتينية منطوقة من قبل سلتيين، ومجعولة في خدمة أذهان سلتية...»[78]، وهي النتيجة نفسها التي نصل إليها مع الدارجة، التي نستطيع القول عنها هي الأخرى بأنها : «عربية منطوقة من قبل أمازيغ، ومجعولة في خدمة أذهان أمازيغية...».

---

78 - Hubert Henri.2001. Les Celtes. Bibliothèque de L'évolution De L'humanité. Nouvelle Edition . P.345.